
الدكتورة بنت الشاطئ
نساء النبي
دار الهلال

نساء النبي

عليه الصلاة والسلام

تأليف
الدكتورة بنت الشاطئ
جامعة عين شمس

دار الهلال



مقدمة

هـذا حديث عن حيـاة محمـد صلى الله عليه وسلم فى بيته ، أعرضه فى صور متتابعة للسيدات اللواتى أظلهن هذا البيت ، وكان لكل منهـا أثرها فى حيـاة زوجهن الرسـول ، ومكانها فى تاريخ البطل الذى قاد أروع معركة عرفتها الدنيا منذ كانت

ولم أكتب كلمة واحدة من هـذا الحديث ، حتى قرأت ما فى مكتبتنا من مؤلفات تناولت هـذا الجانب من حيـاة الرسول وحيـاة زوجاته ، مبتدئة بالقرآن الكريم ، وكتب السيرة ، والتفسير ، والحديث ، ثم التراجم والتاريخ ، وضممت اليها ما استطعت الوصول اليه مما كتبه المستشرقون عن « محمد والاسلام » فى الانجليزية ، والألمانية ، والفرنسية ، وانه لكثير

على أنى حين بدأت أكتب ، خليت هذا الحشد من المؤلفات الى جانبى أرجع اليه كلما دعت حاجة أو ضرورة ، وتركت قلمى يصور حياة أمهات المؤمنين فى بيت النبى ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذى قرأت

وأعترف بأنى شعرت بتهيب ورهبة حين فرغت من القراءة ، حتى لقـد هممت بأن أعود فأحجم عن الكتابة فى هذا الموضوع ، وذلك لمـا ملأنى من احساس بجلاله ودقته من ناحية ، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى :

فهؤلاء السيدات اللواتى عشن فى بيت النبى ، ينزعن جميعا الى حواء ، وقد جئن الى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء ، وتزوجن من بشر يتلقى الوحى من أعلى ، ويبلغ رسالة الاله ، فأنّى لقلم أن يصور حياة كهذه ، تموج فيهـا أهواء البشرية فى فيض من النور الأسنى ، وتتجاذب فيها الأنوثة ــ التى نعرف رقتها وضعفها ــ ورهافة

وجدانها — تيارات بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها الى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى الى السماوات العلا ، وتتعادل من هـذا بشرية سماوية ، وسماوية انسانية !

غير أنى عدت فرأيتها حيـاة حافلة مثـيرة ، تغرى بالدرس والتأمل ، وتجربة نادرة فذة ليس من السهل أن أنصرف عنها بعد أن اتجهت اليها .

***

واذ صح منى العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، فما كانت هذه الكثرة لتحول دون تناول جديد له ، وبخاصـة اذا ذكرت أن أغلب الذين كتبوا قبلى عن حيـاة النبى فى بيته ، مال بهم الهوى عن الحق ، فمنهم من زين له الايمان والاجلال أن ينزه الرسول عن بشريته التى أصر القرآن عليها ، وأكثر — صلى الله عليه وسلم — من تقريرها والاعتراف بها ، ومنهم من أضله التعصب وأعمـاه الحقد ، فجعل من هذا الجانب فى حياة نبينا العظيم ، ما يشفى غله وينفس عن حقده .

ومن هنا بقى فى الموضوع مجال لتناول جديد ، يتمثل حياة نساء النبى فى البيت الكريم على هَدْى الفطرة ، وبايحاء البيئة واملاء التاريخ ، وفى نزاهة متزنة ، ودراسة محققة .

وسيرى القارىء أنى اقتصرت فى هـذا الكتاب على الزوجات اللائى شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن « مارية المصرية » التى كان لها الى جانب حظوتها عند الرسول وشرف أمومتها لابنه ابراهيم ، أثر واضح فى الحيـاة الخاصـة لمحمد صلى الله عليه وسلم . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائى تزوجن الرسول ولم يدخل بهن ، وقد اختلفت الروايات فى عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع الى الجزء الرابع من السيرة لابن هشام (طبع الحلبى) والجزء الثالث من تاريخ الطبرى (طبع الحسينية) والجزء الثانى من الروض الأنف للسهيلى (طبع الجمالية) والجزء الثامن من الاصـابة (طبع الشرفية) والسمط

الثمين (طبع حلب)

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للرسول ، ولا عن « ريحانة بنت عمرو » التى اصطفاها الرسول لنفسه من نســاء بنى قريظة فى الســنة الخامسة للهجرة ، وعرض عليها أن يتزوجها ، فقالت : (١)

« بل تتركنى فى مِلكك ، فهو أخف علىَّ وعليك » فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهى فى ملكه (٢)

ولست أجهل أنه قد كان لهذه السيدة المصطفاة ، ولغيرها من الواهبات أنفسهن للرسول ، أثر فى حياته صلى الله عليه وسلم ، العاطفية والزوجية ، غير أن التاريخ المروى ، لم يشــأ أن يسجل ذلك الأثر ، ولا عرف لهن مكانا فى بيتــه ، ومن ثم جاز لى أن أدعهن كى أفرغ للحديث عن أولئك اللائى دخلن فى حيــاته صلى الله عليه وسلم ، مركزة جهــدى فى تصوير شخصياتهن كما بدت فى بيت النبى ، فلم أتعرض لمــا قبــل مجيئهن اليه الا على سبيل التمهيــد ، ولم أتتبع حياتهن بعد الرســول الا أن تكون اشارة موجزة يدعو اليها المقام

ذلك لأننى لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبى جمعا لمًّا ، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدى المألوف فى تراجم الأشخاص ، وانما عنانى تمثل حيــاة كل منهن فى بيت الرســول ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصــويرا يجلوها زوجة وأنثى ، ولا على القارىء بعد هــذا أن يلتمس هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخى لسنة وفاتها ، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها بعد زوجها ، بل فليلتمسه فى غير هذا الكتاب اذا شاء ، وحسبه منى أن أقــدم له من ملامح شخصيتها الأصيــلة ، ما يضىء تاريخها كله الاضاءة الكبرى

وأود بعد هــذا أن يطمئن القارىء الى أنه ما من خبر سيق فى هــذا

---

(١) السيرة ابن هشام : ٢٥٦/٢ ط الحلبى — والسمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٤٦ ط حلب

(٢) تاريخ الطبرى : ٥٩\٣ ط مصر

الكتاب ، الا أخذ من مصادره الأصيلة ، ونقل منها نقلا أمينا ، ثم كان لى وراء ذلك منهجى فى التناول وأسلوبى فى الأداء ، ولعلى أكون قد وفقت فيهما الى شىء مما حاولت من النظرة الواسعة الأفق ، والصراحة الصادقة التى تدرك جلال الموضوع ، وتقدر حرمة الكلمة وأمانة القلم

بنت الشاطىء
من الأمناء

مصر الجديدة

الفصل الأول



«قل: سبحان ربي. هل كنت إلا بشرًا رسولا»

قرآن كريم

محمد الزوج

الحديث عن « نساء النبى » فى بيته ، لابد أن يسبقه حديث عن البيت الذى هو البيئة المكانية لحياتهن . والواقع أنه لم يكن بيتا واحدا ، بل بيتين : أولهما فى « مكة » حيث عاش « محمد » صلى الله عليه وسلم ، مع زوجته الأولى وحدها ، وحيث أنجب ، وواجه التحول الأعظم فى حياته وفى حياة العرب والانسانية جميعا . وقد وصفتُ هذا البيت فى كتابى عن « بنات النبى » (1) ومن ثم أعفى نفسى وأعفى قرائى من التزيد بتكرار ذلك الوصف . أما البيت الثانى فى « المدينة » حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضى الله عنها ، فيجد القراء وصفه موجزا فى الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنها من هذا الكتاب ، اذ كانت أولى الزوجات مكانا فيه ، ومن بعدها جاءت نساء النبى تباعا ، وصار لزواج الرسول معنى اجتماعى وسياسى وتشريعى لم يُلحظ فى البيت الأول الذى دخله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ شابا فى الخامسة والعشرين من عمره ، لم يُبعث بعدُ برسالة ، ولم يتلق وحى السماء

***

وكذلك ينبغى أن يسبق الحديثَ عن نساء النبى فى بيته ، حديثٌ عن ربِّ هذا البيت الذى أظلهن

وأحسب أن ليس من بين القراء من ينتظر منى هنا تتبعا لسيرة الرسول أو عرضا لتاريخ حياته المجيدة الحافلة ، وانما أقف من هذا كله عند جانب بعينه لا أريد أن أتجاوزه الى سواه ، ذلك هو محمد الزوج ، أو الرجل الانسان الذى أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعتهن دنياه الخاصة ، وكان لهن حظ المشاركة فى حياته الوجدانية ثم فى حياته العملية

والفصل بين شخصية محمد زوجا رجلا، وشخصيته نبيا رسولا، جِد

---

(1) ظهرت منه طبعتان : الاولى فى كتاب الهلال ــ والثانية من الشركة العربية للنشر والتوزيع سنة ١٩٥٩

عسير ، وليس الأمر كذلك فى حيـاة نبى آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعا آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم » (١) ، ذلك لأن الرسـالة المحمدية قد أصرت على تقرير بشرية محمـد عليه الصلاة والسلام ، اصرارا لا نعرف له مثيلا فى الديانات الأخرى التى تحتفظ لرسـلها بعناصر غير بشرية ، وبخاصـة « عيسى » عليه السلام : كلمة الله التى ألقاها الى مريم فجاءت به ولم يمسسها بشر

كذلك لم تنزع الرسـالة من قلبـه عواطف البشر ، ولا جـردته من وجدانهم ، ولا عصـمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة من وجوب الصـدق والأمانة . فهو كما قال جل جلاله : « قل انما أنا بشر مثلكم» (٢) : يسكن الى زوجة ، ويشغل بالأبناء ، ويعانى مثل الذى يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجرى عليه ما يجرى على كل آدمى من تعب ويتم وثكل ، ومرض وموت :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتـل انقلبتم على أعقابكم ؟ » (٣)

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حـر الثكل فى بنيه وفداحة المصاب فى خديجة ، ومحنة الافك فى عائشة ، ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهـاد أعدائه وكيد خصومه ونفاق المتخاذلين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

« قل : لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشـير لقوم يؤمنون » (٤)

ويا له من تكريم للبشرية ، أن ينتمى اليها نبى يحمل رسالة السماء ،

---

(١) سورة يوسف اية ١٠٩ ، والنحل اية ٤٣ (٢) سورة الكهف ١١١ ، وفصلت اية ٦
(٣) من آية ١٤٤ سورة ال عمران (٤) آية ١٨٧ من سورة الاعراف

ومن قبل كرمها الله ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، أبى البشر !

***

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر!
وكيف وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا ، ليبعثه بآخر رسالات السماء ؟

كيف وقد كان هو الذى تلقى كتاب الله ليتلوه فى الناس مبشرا ونذيرا ؟

انه بشر رسول ، وهذا هو موضع الدقة والعسر فى الحديث عن « الرجل » فى حياته العاطفية والزوجية ، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد ، أنه قد كان النبى المصطفى ، وأن كلمة الاسلام الأولى هى الشهادة بأن لا اله الا الله ، وأن محمدا نبيه ورسوله

ويزيد فى دقة الأمر وعسره ، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فى الرسول غير منفصلتين ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل أى رجل من البشر ، وانما كان — عليه الصلاة والسلام — يتلقى من حين الى حين أوامر ربه فى أخص الشئون الزوجية ، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوى صريح :

فمحنة الافك مثلا ، لم يحسمها الا نزول الوحى ببراءة « عائشة » مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة

وزواج الرسول من « زينب بنت جحش » ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذى كره لمحمد أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه

وطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم لزوجته السيدة حفصة ، أشفقت منه السماء على أبيها « عمر » رضى الله عنه ، فنزل أمين الوحى على النبى بأمر الله أن يراجع حفصة رحمة بعمر

وضيق نساء النبى بما فرض عليهن من حياة خشنة ، لم يضع حدا له الا قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

« يا أيها النبى قل لأزواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (١)

وسلوك نسائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يخضع لرقابة مباشرة من السماء ، على نحو غير مألوف فى حياة غيرهن ، والله تعالى يقول :

« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقَرْن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » (٢)

وبعض هذا يكفى لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبى

***

فأى رجل كان نبىّ الاسلام ؟

وأى زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، اختلفت أجناسهن وألوانهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن ؟

قد نستطيع ــ بشىء من الجهد ــ أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، فى الشاب الهاشمى الذى صحب عميه : أبا طالب ، وحمزة ، الى دار خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها فى العام الخامس عشر قبل المبعث ..

لقد كان اذ ذاك بشرا غير رسول ، وان يكن المهيأ ليبعث بالرسالة ..

كان شابا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ، أبوه « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، الذى وعت « مكة » قصة افتدائه من النحر وفاء

---

(١) آيتا ٢٨ ، ٢٩ من سورة الاحزاب
(٢) الآيات من ٣٢ : ٣٤ من سورة الاحزاب

بنذر أبيه (١) ، وهى قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول « اسماعيل ابن ابراهيم » جد العرب

وأمه « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة » أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا (٢)

وقد أمضى أعوامه الأولى فى بادية بنى سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص فى شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان (٣) . كما أكسبته حياته الكادحة اليتيمة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسئولية ، وجاءت الرحلة الى الشام فوسعت من أفقه وزادته خبرة بالدنيا والناس ، فكان ــ فى ابان شبابه ــ الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح فى شخصيته آثار البادية ، وفى سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم : مثابة الحجاج ، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجارى بين الأطراف المتحضرة فى الجزيرة ، كما تلمح فى عقله تجارب الرحلة والسفر ، وفى خلقه شمائل هاشمى قرشى ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين

هكذا كان « محمد » حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جده واستقامته ، وصدقه وعفته ، فمهد هذا كله سبيله الى قلبها الذى كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا ، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها : شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه

---

(١) ابن هشام : السيرة ١\١٦٠ : ١٦٣ ــ وانظر معه كتابنا « أم النبى » س ٧٨ : ٨٢ من الطبعة الثالثة

(٢) ابن هشام : السيرة ١٦٥/١

(٣) لم يفتنى هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم قبل اختلاطهم بالشعوب التى أخضعوها بعد الاسلام ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس الى بيئة مكة التى عرفت الاختلاط قبل الاسلام ، بحكم مركزها الدينى والتجارى فاليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام

المفلجة البيضاء اذا تكلم أو ابتسم (١)

وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه الى الأمام ، ويحسن الاصغاء ملتفتا الى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فاذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين ، من أثر الغضب (٢)

ولم تكن السيدة خديجة اذ ذاك بالفتاة الغريرة ، بل كانت السيدة الناضجة المجربة التى بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون فى مالها الى الشام ، وان فى اعجاب مثلها « بمحمد » وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت فى شخصيته الأسرة اللافتة ، ما لم تجده فى أى رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها ، ولسنا بحاجة الى آن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالى ، لا النبى المنتظر

وقد عاشرته هذه السيدة الناضجة المجربة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث ، وانها لأعوام طويلة تكفى لأن تكشف عن جوهر هذا الزوج وتبدى من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس ، وليس كالحياة الزوجية ما يمتحن الرجل أدق امتحان ويزنه أصدق ميزان وأضبطه ، ومن ثم كان ايمان السيدة خديجة برجلها ، وتصديقها لرسالته دون أن يساورها أدنى ريب فى الزوج الذى اختارته شابا ، وأحبته وعاشرته زوجا ، وعرفته رجلا ، آية على عظمة ذلك الانسان ، فهى لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحى الأول ، حتى هتفت فى حرارة ولهفة ويقين :

« ... ووالله ما يخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣//١٨٥ - وانظر معه الروض الانف للسهيلى ج ١

(٢) هكذا وصفه الامام على كرم الله وجهه فيما نقل الرواة . راجع الجزء الاول من « الروض الانف » للسهيلى - وتاريخ الطبرى: ٣\١٨٥ ، ١٨٦

(٣) الاصابة لابن حجر : جـ ٨ - والسمط الثمين للمحب الطبرى : ١٩

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت ، وان فيها لما يجلو لنا ملامح من شخصية محمد الرجل السيد ، قبل أن يبعث نبيا رسولا . وقد يؤيدها ما تناقل الرواة من وصف « على بن أبى طالب » ــ كرم الله وجهه ــ لابن عمه الذى عاش معه طويلا فى بيت أبى طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج من السيدة خديجة :

« ... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه .. » (١)

***

وفى الاستيعاب (٢) ، حديث لأم معبد الخزاعية ، تقول فيه وصفا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد رأته قبل أن تعرفه :

« رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق.. وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى صوته صحل ، وفى لحيته كثاثة ، ان صمت فعليه الوقار وان تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ... له رفقاء يحفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره »

والسيدة « خديجة » تنفرد من بين نساء النبى جميعا بأنها وحدها التى عرفته رجلا وزوجا قبل أن تحف به أضواء النبوة ، ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتهما الزوجية نلتمس فيها شخصية الرجل الزوج ، فاذا تركناها الى الزوجات الأخريات اللواتى جئن بيت النبى بعدها ، شق علينا تمثل حياتهن هناك ، فما من امرأة منهن دخلت حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، الا رأت فيه الزوج والنبى معا ، وعرفت فيه الرجل والرسول مجتمعين

---

(١) وانظر معه حديث أنس بن مالك عن شجاعة الرسول وجوده ، فى تاريخ الطبرى : ١٨٦/٣ ، ١٨٧.

(٢) حـ ٤ ط نهضة مصر

والذى نطمئن اليه ، هو أن الزوجة منهن كانت تأتى بيت الرسول معتزة بشرف الزواج من النبى المصطفى ، والسيد الزعيم ، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من هناك من زوجات يشاركنها فى رجلها ، حتى ترى فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الزوج قبل الرسول . ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التى تحتدم حتى تجاوز المدى ، وما يكون شىء من هذا فى حياة نساء يرين فى زوجهن نبيا فحسب !

وحياة « محمد صلى الله عليه وسلم » فى بيته ، تبدو رائعة فى بشريتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين زوجاته رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان (١) ، ولم يحاول ــ الا فى حالات الضرورة القصوى ــ أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيروعنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى ، ولا الجمود العاطفى ، وما ذاك الا لأنه صلى الله عليه وسلم كان سَوِىّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف

وتاريخ الاسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات ، بأنهن كن دائما فى حياة الرسول البطل ، يصحبنه حين يخرج فى معاركه ، ويتحن له ما برضى بشريته ، ويغذى قلبه ، ويمتع وجدانه ، ويجدد نشاطه ، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الباهظ ، واحتمال ما لقى فى سبيل دعوته الخالدة من فادح المتاعب والأهوال

***

وقد عاش رسول الله ما عاش ، فتىّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين ، حىّ الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه فى حجر أحب نسائه اليه وأحظاهن عنده ..

فليغفر الله لمن حملهم ايمانهم على أن يجحدوا آية الله العظمى فى

(١) فى كتاب السمط الثمين للمحب الطبرى ، حديث طويل عن رعايته صلى الله عليه وسلم لزوجاته ، وسمره معهن ، وصبره عليهن : ص ٨ : ١١

ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

وليغفر الله لمن زعموا أن نبيه لم يخفق قلبه بحب « عائشة » ، ولا أحس ميلا نحو « زينب بنت جحش » ، ولا كان لعاطفته دخل فى زواجه من نسائه !..

ويأبى الله ورسوله ، وتأبى هذه الفطرة السوية التى عرفتها الانسانية فى « محمد » واعتزت بها ، ويأبى التاريخ الذى وعى من أنبــاء الحيــاة الزوجية للرسول ، ما ينفى عنها الجفاف والجمود

تعدد الزوجات وحياة الضرائر

ولا بد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين فى حياة النبى مع نسائه ، رأعنى بهما تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر

وقد قال المستشرقون فى أولاهما ما قالوا ، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النســاء ، تحت رجل واحد ، سوى مظهر شهوة مسرفة . وانه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى الأعشى ، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيــس مســألة تعدد الزوجات بمقــاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة « محمد » آباد وأبعاد ..

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة ، يتبع فى دقة وينفذ نصا وروحا ، ومع هذا يأتى بعض أبنائه فينكرون فى جرأة أن يجمع محمد ــ صلعم ــ بين عدد من الزوجات منذ نحو أربعة عشر قرنا ، فى بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التى لا تعرف سواه الا فى حالات قليلة ولدواع خاصة . ولم يكن هذا النظام اختياريا ، وانما قضت به طبيعة الزمان والمكان ، فى اقليم صحراوى أدنى الى البداوة ، وفى زمان يسوده نظام القبيلة ، والبنون فيه زينــة الحيــاة ، وفخر المرأة الانجاب ، وفخر الرجال الولد وعزة النفر

وربما بدا لنا اليوم أن ذاك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربيــة ورقها المزعوم ، وأنه قصــد الى ارضــاء الرجال ، ولكنه فى الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا ، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد ، وهو هــذا الرق العصرى الذى يعترف بزوجة واحدة ، ويدع لغيرها ــ ممن يعاشرهن الزوج ــ الضياع والهوان ..

والمرأة الخاسرة هى التى تدفع الثمن باهــظا ، ويدفعه كذلك مجتــمع تعس ، وانسانية شــقية بلقطــاء مضيعين ، وصغار منبوذين ، لم يكن يعرفهم المجتمع العربى الذى كان يستكثر من الأولاد ، ولو عن طريق

التبنى والاستلحاق ، بحكم سيادة الرجل واعتزازه بكثرة النفر

***

وفى مسألة التعدد ، جانب دقيق غفل عنه كثيرون .. ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى ــ راضية ــ أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل ، على أن يكون لها غيره كاملا

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح احداهن الى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معنــاه على التحديد أن « محمدا » كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال ، الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها ــ مع غيره ــ مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة

وليس من بين زوجاته ــ صلى الله عليه وسلم ــ من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية الى حد يسهل علينا تصوره ، لو ذكرنا أن « خولة بنت حكيم » اقترحت على الرسول أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد (١) ، وان « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث » هى التى (٢) عرضت أن تتزوج الرسول وفى بيته عشر نساء : ثمانى زوجات واثنتان ملك يمينه ، وأن عمر ابن الخطاب (٣) عرض ابنته حفصة على أبى بكر ، وعنده « أم رومان » حماة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن على بن أبى طالب هـمّ بأن يتزوج على « فاطمة الزهراء ، بنت النبى » وأن أبا بكر وعمر ، صهرى الرسول رغبا فى الزواج من « أم سلمة بنت أبى أمية » حين مات عنها زوجها ، وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة

***

ولو خـيِّرت زوجات النبى بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ، ومع زوج واحد ، وبين حياة أخرى منفردة ، فى غير ذلك البيت ، لما رضين

---

(١) ابن هشام : السيرة : ٣٥٢/١ وتاريخ الطبرى ، الجزء الثالث
(٢) المصدر نفسه : ٢٩٦/٤ ، وتاريخ الطبرى ، الجزء الثالث
(٣) السمط الثمين : ٨٣

عن حياتهن بديلا ..

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب رجلها . وقد شـهد بيت الرسول من غيرة نسائه المحتدمة ، ما يخيل الينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولاتفتر، وان لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به

***

وما من شك فى أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع اليه قسرا ودون اختيار ، وما تزال الانسانية تصغى حتى اليوم ، وغد بعده ، الى كلمته فى زوجته « عائشة » حين لجت بها غيرتها العارمة :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وترى فيها آية على سلامة الفطرة ، وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء . وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فى زوجهن الرسول ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لزوجات نبى من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى فى ضـعف البشرية اثما لا يغتفر ، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو الى الازدراء

ويحضرنى الآن حديث لعمر بن الخطـاب ، أستجلى فيه ملامح الزوج الرسول وضاءة مشرقة ، وأراه صادق الدلالة على شخصية محمد الرجل الانسان . قال رضى الله عنه :

« والله ان كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أئتمره اذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : وما لك أنت ولما ها هنا ، وما تكلفك فى أمر أريده ؟ فقالت لى :

ـ عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

« فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فقالت : « انا والله لنراجعه ! »

« ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت لى :

« عجبا لك يا ابن الخطاب !.. قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ؟ »

« فأخذتنى أخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد » (١)

ذلك أن عمر والصحابة رضى الله عنهم ، كانوا يرون فى « محمد » النبى المصطفى ، أما نساؤه فكن يرين فيه الزوج الرسول ، وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ راض بهذا ، مقر" له ، غير ضجر به ولا كاره ..

***

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبى من خصام وخلاف ، والحق أنه صلى الله عليه وسلم ما ضاق بهذا الا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها الرسول الى أخذ نسائه بالشدة والعنف ، لم يكره محمد صلى الله عليه وسلم أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى ضد الوثنية ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ، ولعله كان مما يرضى الرجلَ فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس زوجاته على الظفر بحبه ورضاه الى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج . وما حاول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ،

---

(١) المحب الطبرى : السمط الثمين ١٨٣ط حلب

ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب ، وما كان أحلمه صلى الله عليه وسلم ، وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه ، حين سمع قصة (١) ائتمار نسائه بعروس له أشفقن من جمالها ، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبى ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها الرسول قبل أن يدخل بها ، وقال عن نسائه :

« انهن صواحب يوسف ، وان كيدهن عظيم ! »

***

وهذه صورة من حياة زوجاته رضى الله عنهن ، أرجو أن يرى فيها القارىء شخصية هذا الرجل الفذ الذى آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن فى حياته قائدا وزعيما

(١) القصة منقولة بشىء من التفصيل ، ق: ص ٨٣

الفصل الثانى

خديجة بنت خويلد

أم العيال وربة البيت

« .. والله ما أبدلني الله خيراً منها،
آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني
إذ كذبني الناس، وواستني بمالها
إذ حرمني الناس، ورزقني منها
الله الولد دون غيرها من النساء »

محمد رسول الله

ذكرى أليمة

أينع صباه واكتمل شبابه ، فى بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات ، لكنه كان يجد طعمَ الحياة فى مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده ، وترده الى لحظة طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما ، وما يزال يذكر موقفه فى بقعة موحشة من الصحراء بين « مكة ويثرب » ، أمام أمه « آمنة » والحياة تتسرب من كيانها رويدا ، ثم تنطفىء الى الأبد ...

ثمانية عشر عاما ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى (١) له عبر السنين ، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التى ألقوا فيها جثمان الغالية « بالأبواء » ، ضائع الحيلة مهيض الجناح ، لا يملك أن يستبقى أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام ، بعد أن هالوا عليها الرمال

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه ، وصرفته دواعى الحياة فترة عن تمثّل ذاك الموت الذى غال أعز مَن له ، أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن ينتزَع من حاضره مستثار الحزن ، فاذا قلبه يخفق بين جوانحه شعورا بعالم بعيد ، فى طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية فى جوف الصحراء ، ثم ينثنى مثقلا بالأسى والشجن

وما أكثر ما كان يمر فى مكة بالبيت المهجور الذى ضمه وأمه زمنا ، ثم أوحش من بعدها وأظلم !

ما أكثر ما كان ينطلق الى المراعى خارج مكة ، فاذا حان المساء وآن له أن يئوب الى منزله ، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى الى يثرب ، وحيدا محزونا ، مضعضع الحواس ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٧٧ ط الحلبى

مضاعف اليتم ، يتبع جاريته « بركة » وانىَ الخطو صامتا واجما ، وهى تسعى به الى بيت جده الشيخ « عبد المطلب »

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروع صباه

كم جاهد ـ مدى عامين كاملين (١) ـ ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز !

لكن الزائر المرهوب الذى ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه ، عاد من جديد فطوف بحى بنى هاشم ، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب ، وينذر بالرحيل

ووقف الغلام مرة ثانية ، يرقب الحياة وهى تنطفىء فيمن كان له أبا بعد أبيه

وأصغى فى حزن ذاهل الى صوت الشيخ المحتضر ، وهو يدعو اليه ولده « أبا طالب » فيوصيه بمحمد ، ابن أخيه « عبد الله »

ثم يمضى ...

وانتقل الصبى من بعده الى منزل جديد ، وألفى لدى عمه أبا ثالثا ، لكنه ظل يفتقد الأم

وبقى قلبه على الأيام والشهور والسنين ، ينزع نحو مرقدها الأخير فى « الأبواء »

ولم يستطع ضجيج صبية بنى هاشم فى ملاعب حداثتهم ، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التى صكت أذنيه وقلبه فى جوف البيداء

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول « البيت العتيق » فى « أم القرى » أن تطوى فى متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها

***

وهذا هو يقف فى المساء الساجى عند أطراف الصحراء شارد البال ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ١٧٨/١

والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمت العميق شجنا واعياء

واذ تتكاثف الظلمة من حوله ، يجمع نفسه فى جهد ، ويأخذ طريقه الى منزل عمه ، وفى نفسه احساس غامر بفراق وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذى أواه سبعة عشر عاما ، وحسب العم ما يحمل من أعباء بنيه الكثار ..

ولكن الى أين ؟..

الى « الشام » مؤقتا كما أراد له عمه فى صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه فى مطلع الشمس عن رحلة مرجوة الخير ، وقال له فيما قال : (١)

« يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وان كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ...

« وقد بلغنى أنها استأجرت فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك فى أن أكلمها ؟ »

قال « محمد » :

ـ ما أحببت يا عم ...

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل ؟

اذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوى فى ضمير الغيب

---

(١) هذه رواية الزرقانى عن الواقدى . وانظرمعها سيرة ابن هشام ١٩٩/١ ، والسمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٣ طبعة حلب ـ والذى فى الطبرى (١٩٦/٢) أن السيدة خديجة هى التى عرضت عليه أن يخرج فى مالها الى الشام تاجرا

لقاء

القافلة تغذ السير نحو « أم القرى » عائدة من رحلة الصيف الى الشام

والحداة يهزجون بأغانيهم التى تعد الابل بالراحة والظل والرى ، وتمنى الركب بالأنس فى لقاء الأهل والأحباب

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا « مر الظهران » على مقربة من « مكة » واشرأبت أعناقهم الى معالمها التى لاحت لهم من بعيد ، تناديهم فى لهفة واشتياق ..

لكنه وحده ، من بين هؤلاء جميعا ، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التى هاجها مرور القافلة قريبا من « الأبواء » فى طريق عودتها الى «مكة»

وعبثا حاول تابعه المرافق ، أن يغريه بالتطلع الى « أم القرى » أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة ، التى اختارته ليخرج فى مالها الى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم قبله

وقال التابع « ميسرة » :

« أسرع أنا الى سيدتى فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ، فانها تعرف ذلك لك »

فتركه « محمد » يمضى ، وفرغ لتأملاته :

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام ، والحداة يمنون الركب بالأنس فى لقاء العشيرة والخلان ؟ !..

وكر بصره راجعا الى وراء ، يتبع آثار طيف من أمه « آمنة » ، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء

وتذكر رحلته الأولى عائدا من « يثرب » بلا أم !

***

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الابل التى

أناخت على ثرى « مكة » مطمئنة ، فمضى « محمد » على بعيره قاصدا دار « خديجة » بعد أن مر بالبيت العتيق ..

وكانت « خديجة » هناك فى دارها ، ترقب الطريق من علية لها فى لهفة ممزوجة بشيء من القلق ، والى جانبها غلامها « ميسرة » يملأ أذنيها بحديث مثير عن رحلته مع «محمد » (١)

واذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة ، أندفعت تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا

ورفع اليها وجهه شاكرا ، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره ، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام ..

وأنصتت اليه شبه مأخوذة ، حتى اذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هى ، تتبعه عيناها الى أن توارى فى منعطف الطريق

واتجه هو الى منزل عمه « أبى طالب » وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح ، أن عاد اليه من رحلته موفقا سالما ، لم يمسه أذى من يهود ...

(١) انظره فى ابن هشام ٢٠٠/١ — وفى السمط الثمين ص ١٣ — وتاريخ الطبرى ١٩٦/٢

زواج ناجح

وسارت الحياة فى « مكة » على وتيرتها أياما ، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم واحصاء أرباحهم أو خسارتهم ، وانصرف التجار العائدون الى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل ، محفوف بالأخطار

وصُفى حساب القافلة أو كاد ، وانقطع ما بين التجار والأجراء الى حين ، اللهم الا ما كان بين السيدة « خديجة » و « محمد » الصادق الأمين ..

لقد بلت « خديجة » الدنيا وعرفت الرجال ، وتزوجت مرتين ، باثنين من سادات العرب وأشرافهم : أبى هالة بن زرارة التميمى ، وعتيق بن عائذ المخزومى (١) ، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان ، فما رأت فيمن عرفت ، ذلك النمط المنفرد من الرجال

واستغرقت فى تفكيرها ، تستعيد صوته العميق الساحر وهو يحدثها عن رحلته ، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال

وفجأة ، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى ، فهزها شعور مباغت ، وانثنت تسائل قلبها :

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد ؟

ترى هل مسه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع وطاب له الرقاد وألح عليه الانفراد ؟

واذ تلقت جواب القلب انتفضت مذعورة لا تدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت — فى حساب بيئها — من حياة الرجال ؟

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطّاب من سادة قريش

---

(١) هذه رواية الاستيعاب ، والذى فى سيرة ابن هشام (١٩٣/٤) وفى السمط الثمين (ص ١٣) انها تزوجت عتيقا المخزومى قبل أبى هالة التميمى ، ومثله فى تاريخ الطبرى:١٧٥/٣

وسراة مكة ؟ (١)

ولكن ويحها ! لقد فكرت فى قومها ، دون أن تعرف رأى « محمد » فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بنى هاشم الناضرات ؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هى فى كهولتها بالقياس الى « محمد » فى شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت « آمنة بنت وهب » لما جاوزت اذ ذاك سن الأربعين !

وهتفت بقلبها : أن حسبك ، فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة ؟

وفى غمرة حيرتها واضطرابها ، زارتها صديقتها « نفيسة بنت منية » فما غاب عنها الذى تجد صاحبتها ، ولم تدعها حتى كشفت لها عن سرها المطوى

وهونت « نفيسة » الأمر عليها ، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا ، وهى بعد ذات غنى وجمال ، كل قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه (٢)

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا ..

***

جاءت (٣) « محمدا » فسألته فيم عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان ؟ هلا سكن الى زوجة تحنو عليه وتزيل وحشته وتملأ دنياه بهجة وأنسا ؟

فأمسك الشاب اليتيم دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره ، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته :

---

(١) ، (٢) سيرة ابن هشام : ٢٠١/١ — والسمط الثمين ١٣

(٣) كذا فى شرح المواهب وفى الاستيعاب . والذى فى سيرة بن هشام أن السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة . وروى المحب الطبرى فى السمط ، انها بعثت الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر اسم من بعثته — وانظر تاريخ الطبرى . ١٩٧/٢

ـ ما بيدى ما أتزوج به ..

قالت على الفور :

ـ فان دُعيتَ الى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

فما مس سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعنى :

تلك « خديجة » ورب الكعبة ، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا ومالا ؟

ألا لو دعته لأجاب ، ولكن هل تدعوه ؟

وانصرفت « نفيسة » وتركته مشغول البال ، يرنو فى رقة الى صورة لخديجة ، لاحت له فى وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير ، تشع لطفا وبهاء وحنوا ..

وأشفق أن تبعد به أمانيه ، اذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها ، فغالب نفسه ليستردها الى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فاذا كاهنة تلقاه فى طريقه فتستوقفه سائلة :

ـ جئتَ خاطبا يا محمد ؟

أجاب غير كاذب :

ـ كلا ..

فتأملته برهة ثم هزت رأسها وهى تقول :

ـ ولم ؟.. فوالله ما فى قريش امرأة ، وان كانت « خديجة » ، لا تراك كفئا لها (١)

***

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة « خديجة » فسارع اليها مليا وفى صحبته عماه : « أبو طالب وحمزة »

وهناك فى بيتها ألفوا قومها ينتظرون ، وكل شىء مهيأ لزواج سريع ..

وتكلم « أبو طالب » :

« أما بعد : فان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش ، الا رجح به

(١) راجع هذا الحديث كله ، فى الجزء الاول من السيرة لابن هشام ، والروض الانف للسهيلى ١\١٢٣

شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل ، فانما المـال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى « خديجة بنت خويلد » رغبة ، ولها فيه مثل ذلك .. »

فأثنى عليه عمها « عمرو بن أسد بن عبد العـزى بن قصى » وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة (١)

ولما انتهى العقد ، نحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فاذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بنى سعد ، لتشهد عرس ولدها الذى أرضعته ، ثم لتعود فى الغداة ومعها أربعون رأسا من الغنم ، هبة من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت « محمدا » زوجها الحبيب

وتندت عينا « محمد » وهو يتفقد أمه « آمنة » فاذا يد لطيفة رقيقة ، تأسو الجرح القديم فى حنان غامر ، واذا به يجد فى « خديجة » عوضـا جميلا عما قاساه من حرمان

***

ولم يعن « مكة » من أمر الزوجين السعيدين ، سوى أن زواجا ربط بين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى » وبين « خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى »

ولكن « التاريخ » تلبث اذ ذاك برهة ، ليسجل يوم العرس المشهود ، بين أيامه الخالدات على مر الدهور والأحقاب

ثم انصرف الى حين ، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها « مكة » ويترشفان على مهل ، رحيق ود صاف عميق ، سيظل حديث الزمان

واستغرقا فى هناءتهما خمسة عشر عاما ، ناعمين بالألفة والاستقرار ، وقد أتم الله عليهما نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم ، وعبد الله ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٠١/١ ، وفى رواية أخرى أنه أصدقها اثنتى عشرة أوقية ذهبا :
السمط ١٥

ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة (١)

وأرخى الزمن لهما فى حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواما ذات عدد ، أرتوى « محمد » خلالها من نبع الحنان ، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزودا لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام

وقـد ذاقا فى تلك الفترة لوعة الثكل فى الولـدين العزيزين ، فكان للزوجين فى وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التى تدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما الا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ! (٢)

---

(١) انظر الاصابة ، الجزء الثامن . والسيرة ١: ٢٠٢/١ – وانظـر معـه تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ ط مصر

(٢) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمـدوأمومة خديجة ، لان موضع هذا الحديث فى كتابنا عن « بنات النبى »

رسالة من السماء

ثم كان الحادث الفرد الخطير ، لا فى حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب ، ولا فى حياة قريش والعرب وحدهم ، بل فى حياة الانسانية جمعاء

لقد تلقى « محمد » رسالة السماء ، وجاءه الوحى الالهى فحمّله الأمانة العظمى ، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا ..

وكانت الرسالة ايذانا بحياة جديدة ، شاقة كادحة ، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد ، والعذاب ، والنضال ، ثم النصر

وفى الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب ، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء ارهاصات عن نبى جديد قد حان مبعثه ، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون ، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها ! (١)

و « مكة » على الخصـوص ، كانت الموضـع الذى تتلاقى فيه تلك الارهاصات والتكهنات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك ، لتصب حول « البيت العتيق » : مثـابة الحج ومركز العبـادة من قديم العصور والآباد

كذلك لم يكن الحادث الخطير مفاجأة لمحمد ، فمنذ استقرت به الحيـاة فى رعاية الزوجة الرءوم ، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومى ، أتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع الى التأمل ، وميل الى التفكير المستغرق . وهى نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا . ووجدت فى ساعات فراغه ــ أيام رعيه للغنم ــ مجالا رحبا ، ثم صرفه عنها كدح العيش ، لتعود فتظهر من جديد ، قوية أصيلة ، كأنما هى فطرة فيه

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة ، تلك التى صنعت تاريخ «مكة» وتاريخ أسرته بوجه خاص ، ووصلت (٢) ما بين « أبيـه عبـد الله »

---

(١) انظر هذه الانباء بالتفصيـل فى الجزءالاول من سيرة ابن هشام ، ط الحلبى ــ وفى الجزء السادس عشر من نهاية الارب للنويرى ، ط دار الكتب

(٢) السيرة : ١\١٦٣ ــ واقرأ الفصـــل الخاص بمكة فى كتابنا « أم النبى »

و « اسماعيل » جد العرب ، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها ، فأحيت بحادث فداء « عبد الله » من الذبح ، ذكرى متناهية فى القدم ، لمشهد الذبيح الأول : ابن ابراهيم

وانبلج له نور الحق ، فأنكر هــذه الأصنام التى تكدست فى بيت الله ، صماء عمياء ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا . واستبشع أن تخف أحلام قومه ، فيتعبــدوا لحجارة بالغة الهوان ، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم ، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا

وأرهف التأمل حسه ، فاذا هو يستشف أدق ما فى الكون من أسرار ، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء ، قوة عظمى خفية ، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مضطردة ، فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون

***

وما شــارف الأربعين ، حتى كان قد ألف الخلــوة فى غار « حراء » واستطاب رياضــته الروحيــة التى يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم ، وما كانت « خديجة » فى وقار ســنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت ، فاذا انطلق الى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه (١) ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد وحدته

وهكذا بدا كأن كل شىء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها ــ رغم هذا التهيؤ ــ زلزلت حين جاءت ، أرجاء ذاك العالم الذى طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت كيان ذلك النبى الموعود ، « محمد بن عبد الله » الذى ما رضي قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا شك لحظة ، فى أن

---

(١) السيرة لابن هشام : ٢٥٣/١ ــ والسمط الثمين : ١٩

حياة قومه لن تمضى هكذا على سفه وضلال ..

فما جاءه وحى السماء وهو فى غار « حراء » ، حتى انطلق يلتمس بيته فى غبش الفجر خائفا شـاحبا مرتعد الأوصال ، واذ بلغ حجرة زوجته ، احس أنه وصل الى مأمنه ، فحدثها فى صوت مرتجف عن كل ما كان ونفض لديها مخاوفه :

أتراه يهذى حالما ؟.. أم به جِنَّة ؟..

وضمته الى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها ، وهتفت فى ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القـاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . والله لا يخزيك الله ابدا .. انك لتصل الرحم ، وتصـدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١)

وأشرقت أسارير « محمد » وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا الذى مسه الجن ، وهذا صوت « خديجة » العذب الحنون ، ينساب مع ضوء الفجر الى فؤاده ، فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء

واستشعر الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق الى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بطفلها الوحيد ، ثم تهدهده بصوتها الحلو ، وتنثر على مضجعه أسنى الأحلام

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق فى نومه الهادىء المطمئن ، ورف قلبها حوله وملؤه الحب والعطف والاشفاق والاكبار ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى اذا بلغت الباب اندفعت الى الطريق الخالى ، تجرى نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة

وجاءت « ورقة » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما كاد يصغى الى ما تتحدث به من أنباء ، حتى اهتز منفعلا ، وتدفقت الحيوية

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٥٣/١ ـ والاصابة حـ ٨ • والسمط الثمين ص ١٠

فى بدنه الواهن ، فانتفض يقول فى حماس :

« قدوس .. قدوس ، والذى نفس ورقة بيـده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، وانه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت » (١)

ولم تنتظر مزيدا من قوله ، ولم تستعد كلمة واحدة منه ، بل طارت الى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى ، فاذا به لايزال نائما كما تركته

وعز عليها أن توقظه ، فجلست بالقرب منه منتظرة ، تكاد نفسها تذوب من لهفة عليه وحب وحنان ، ثم اذا به فجأة ينتفض فى فراشه ، وتتثاقل أنفاسه ، ويتفصد العرق من جبهته . وظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنتظم أنفاسه ، ويبدو عليه كأنما يصغى الى محدث غير مرئى ، ثم يتلو فى بطء كأنه يستعيد درسا ألقى عليه :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » (٢)

وتلقته « خديجة » من صحوه بين ذراعيها ، وحدثتـه بما سمعت من « ورقة بن نوفل » فرنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ اليها مليا بنظرة تفيض شكرا وامتنانا ، حتى اذا ملأ عينيه من تلك التى ملأت دنياه حبا وأمنا وسلاما ، استدار فنظر الى الفراش وقال فى تأثر :

« انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر النـاس وأن أدعوهم الى الله والى عبـادته ، فمـن ذا أدعو ومن ذا يستجيب ؟ »

فهتفت فى لهفة وحماس :

« أنا أستجيب يا محمد ، فادعنى قبل أن تدعو أى انسان ، وانى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك »

فباركها وهو يشعر بسكينة وراحة ، ثم استجاب لها فقـام ينشـد « ورقة » الذى لم يكد يراه حتى صاح :

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٥٤/١ (٢) سورة المدثر : الآيات ١ : ٧

« والذى نفسى بيده ، انك لنبى هذه الأمة ، ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ! » (١)

ثم أدنى رأسه اليه فقبل يافوخه

قال محمد صلى الله عليه وسلم :

« أو مخرجىَّ هم ؟ »

أجاب « ورقة » :

« نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به ألا عودى ، ليتنى أكون فيها جذعا .. ليتنى أكون حيا ! »

وطابت نفس الرسول بما سمع ، فآب الى بيته مطمئنا ليبدأ نضاله من أجل الدعوة ، وليلقى فى سبيلها أفدح ما وعى تاريخ الأبطال من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التى وجدوا آباءهم لها عابدين !

ووقفت الزوجة المحبة المؤمنة الى جانب زوجها النبى المختار ، تنصره وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا ، فلما قضى على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبى طالب (١) بعد أن أعلنت قريش عليهم حربا مدنية لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة (٢) ، لم تتردد « خديجة » فى الخروج مع زوجها ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد

وأقامت هنالك فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات ، تذوق مع الرسول ومن تبعه من قومه أهوال الحصار المنهك ، وتكافح الوهن الذى أخذ يدب الى جسدها منذ جاوزت الستين ، متشبثة بالحياة فى نضال رائع ، كيما تظل الى جانب رجلها فى معركته الفذة ، التى يلقى فيها بقلة مؤمنة

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٥٤ (٢) المصدر نفسه : ١/٣٧٥

عزلاء ، جبروت الوثنية العريقة المتأصلة ، وجموع القرشيين ذوى العدد والعدة والمال ..

ثم فشل الحصار أمام ذلك الايمان الراسخ الصامد ، وآن لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يعود الى بيته فى مكة (١) ، فتحاملت «خديجة» حتى بلغت فراشها وقد نال منها الاعياء ، واستنفد الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة فى عامها الخامس والستين (٢)

ورقدت هناك ثلاثة أيام ، وزوجها الرسول الى جانبها لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ، ثم أسلمت الروح بين يدى الرجل الذى أحبته منذ اليوم الأول الذى لقيته فيه ، والذى صدقته وآمنت به منذ سمعت برسالته حتى الرمق الأخير

***

وتلفت محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ حوله ، فاذا الدار من بعدها موحشة خلاء ، واذا « مكة » تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان ..

قال « ابن اسحق » : « فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام ! » (٣)

وبلغت متاعبه أقسى مداها فى عام موت « خديجة » الذى سمى « عام الحزن » ، وخيل الى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء ، وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب ، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر ..

ذلك أن « خديجة » لم تمض الا وأمين الوحى يرعى الرسول غاديا رائحا ، يذود عنه اليأس والاعياء ، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد فى سبيل دعوته مجدا وانتصارا

---

(١) ابن هشام : السيرة ١٤/٢ : ٢٠   (٢) الاستيعاب ، والسمط الثمين ١٧
(٣) السيرة : ٥٧/٢

لم تمت « خديجة » الا والدعوة قد ذاعت وجاوزت « مكة » الى أطراف الحجاز ، ثم الى ما وراءها من بلاد العرب ، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار الى « الحبشة » (١) مهاجرين بدينهم ، متخلين عن ديارهم وأهليهم ، عارضين على الدنيا خارج الجزيرة ، مشهدا رائعا من مشاهد الايمان الباذل الصابر ، مالئين الأسماع والقلوب بحديث مثير عن لذة الكفاح ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد

لم تمت « خديجة » الا وفى « يثرب » أنصار (٢) للرسول متحفزون لتلبية الداعى الكريم ، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة النبيلة ، ليذهبوا على الأيام بعزة النصر ، أو فخار الموت فى سبيل الله ورسوله ..

---

(١) السيرة لابن هشام : ٣٤٤/١ (٢) المصدر نفسه : ٧٣/١ ، ٨٤

ملء الحياة

ولكن ، هل ماتت « خديجة » حقا ؟

كلا !.. انها لماثلة أبدا بين عينى زوجها الرسول ، فما يسير الا وطيف منها يتبعه ، وما يسرى الا وسنى مشرق منهـا يبـدد من حوله حالك الظلمات ..

وستدخل بعدها فى حياة « محمـد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفى دنيـاه ، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوجة الأولى ، والحبيبة الرءوم التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان ، (1) لم تشركها فيه أخرى ، ولا لاح فى أفقه ظل من شريكة سواها

وستفد على هذا البيت بعدها زوجات أخريات ، فيهن ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح « خديجة » عن مكانها هناك ، ولن تفلح فى ابعاد طيفها الذى أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر باعزازه ما عاش

وستشهده « المدينة » بعد أعوام عندما انتصر فى « بدر » يتلقى فداء الأسرى من قريش ، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها «زينب» فى فداء زوجها الأسير « أبى العاص بن الربيع » حتى يروق قلب البطل الرسول من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين ، فى أن يردوا على « زينب » قلادتها ويفكوا أسيرها (2)

وسيشهد بيت النبى « عائشة بنت أبى بكر » فى عزة صـباها ونضرة شبابها وحب الرسول لها ، تشغلها الغيرة من تلك الضرة التى سبقتها الى قلب « محمد » واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثم ظلت بعـد موتها حيث كانت من قلب الرسول : أقبلت « هالة » ـ أخت خديجة ـ

---

(1) انظر الاصابة : حـ ٨ والسمط ١٧

(2) ابن هشام : السيرة ٢٠٧/٢ ـ ولحديث القلادة فصل خاص ، فى كتاب « بنات النبى »

لزيارة المدينة ، وسمع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ، فهتف خافق القلب :

ـ اللهم هالة !

فما ملكت « عائشة » نفسها أن قالت :

« ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيرا منها ؟ ! » (١)

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا :

« والله ما أبدلنى الله خيرا منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء (٢)

فأمسكت « عائشة » وهى تقول فى نفسها :

« والله لا أذكرها بعدها أبدا »

وكانت قبل ذلك ، لا تكف عن الكلام فيها !

قالت له يوما وقد ألفته لا ينقطع عن ذكرها :

« كأن لم يكن فى الدنيا امرأة الا خديجة ! »

فرد عليها صلى الله عليه وسلم :

ـ ... انها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد ...

ورأته صلى الله عليه وسلم اذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا الى أصدقاء خديجة . فحدثته فى ذلك مرة ، فقال : انى لأحب حبيبها ! (٣)

وطالما سمعت عائشة رضى الله عنها تقول :

« ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد ما ماتت » (٤)

أو تقول :

« ما غِرتُ من امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما غِرتُ من

---

(١) المحب الطبرى : السمط الثمين ١٥

(٢) ، (٣) السمط الثمين : ٢٦ والاستيعاب : ١٨٢٤/٤ (٤) المرجع نفسه : ص ٢٤

خديجة ، لما كنت أسمع من ذكره لها . وما تزوجنى الا بعد موتها بثلاث سنين » (١)

وحتى يوم الفتح ــ وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات حافلة بأجل الأحداث ــ نرى رسول الله يختار مكانا الى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجته الأولى ، ليشرف منه على فتح « مكة » ، وليقيم فى قبة ضربت له هناك (٢) ، تؤنسه روح « خديجة » ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى الى بيتها العزيز ، حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الكفاح المضنى الطويل ..

وستدخل فى الاسلام من بعد « خديجة » ملايين النساء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التى آثرها الله بالدور الأجل فى حياة البطل الرسول . وسيذكر لها المؤرخون ــ المسلمون منهم وغير المسلمين ــ ذلك الدور ، فيقول « بودلى » :

« ان ثقتها فى الرجل الذى تزوجته ــ لأنها أحبته ــ كانت تضفى جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيــدة التى يدين بها اليوم واحد فى كل سبعة من سكان العالم »

ويؤرخ « مرجيلوث » حياة محمد (٣) ــ رسولا ــ باليوم الذى لقى فيه خديجة « ومدت يدها اليه تقديرا » . كما يؤرخ حادث هجرته الى « يثرب » باليوم الذى خلت فيه « مكة » من « خديجة » ورقدت تحت الثرى

ويطيل « درمنجم » (٤) الحــديث عن موقف « خديجة » حين جاءها زوجها من غار حراء « خائفــا مقرورا أشعث الشعر واللحيــة ، غريب النظرات . فاذا بها ترد اليه السكينة والامن ، وتســبغ عليه ود الحبيبــة

---

(١) السمط الثمين ص ٢٤ ــ والاستيعاب : ١٨٢٣/٤
(٢) تاريخ الطبرى ــ حوادث السنة الثامنةللهجرة (جـ ٣)
(٣) Margolyouth : Mohamed and the Rise of Islam Ed. Oxford 1906, 1-2
(٤) حياة محمد لدرمنجم ــ ص ٥٨ من الترجمة العربية للاستاذ عادل زعيتر

واخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه الى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذى يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا »

وكتب عن وفاتها :

« .. فقد محمد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التى لم تكف عن القاء السكينة فى قلبه .. تلك التى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات »

ودرمنجم هنا ، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم الى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فمرجيلوث يجعل لمال خديجة المكان الأول فى زواج كهذا « بين شاب فقير ، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بنى مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن » ثم يمضى فيكتب ، بكلمات تقطر سما وحقدا :

« ان دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبى طالب حين خطب اليه ابنته أم هانىء (١) ، فرده لفقره وزوجها لذى مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء ، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها فقره »

وكذب « مرجيلوث » فما كان مال « خديجة » هو الذى جذب « محمدا » وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن ، وانما وجد فيها كما شهد «بلاشير» فى كتابه Le problème de Mohamed تلك الرقة المتناهية والحنان الغامر

وكان ما بينهما من فرق السن كافيا وحده لأن يرضى حاجته الملحة الى عطف الأمومة التى افتقدها منذ كان طفلا فى السادسة ، وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق

وأعجب من قول « مرجيلوث » هذا ، ما تحدث به « موير » (٢) عما

---

(١) راجع فى أمر هذه الخطبة : طبقات ابن سعد ، والسمط الثمين ١٣٤

(٢) The Life of Mohamed and the History of Islam

وراء وفاء محمد لخديجة من تهيب لمركزها المالى والاجتماعى ، وخوف من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على « موير » أن يفسر لنا : فيم اذن كان وفاء الرسول لخديجة بعد موتها ؟.. وهل كان صلى الله عليه وسلم يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم « عائشة » فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها ؟ !

لقد كانت « خديجة » ملء حياة الرسول حية وميتة ، وما جاوزت « عائشة » الحق حين قالت لزوجها الرسول : « كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها »

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه ؟ !

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيىء له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها — فى ايثار نادر — ما أعده لتلقى رسالة السماء ؟ !

هل كان لزوجة عداها ، أن تستقبل عودته التاريخية من غار «حراء» ، بمثل ما استقبلته هى به من حنان مستثار وعطف فياض وايمان قوى ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها فى أن الله غير مخزيه أبدا ؟ !

هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف الى جانب رجلها فى أحلك أوقات المحنة ، وتغريه باحتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟

كلا .. بل هى وحدها — ولا امرأة الا مثلها — التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وتكون لليتيم أما وللبطل ملهمة ، وللمناضل ملاذا وسكنا ، وللنبى المبعوث نبع ثقة وطمأنينة سلام ..

قال ابن اسحق [1] : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع

---

(١) فى السيرة — وانظر الثمين ٢٣

شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيبه له فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه خديجة رضى الله عنها : اذا رجع اليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضى الله عنها »



الفصل الثالث

سودة بنت زمعة

أرملة المهاجر

«.. ووالله ما بي على الأزواج من
حرص ولكني أحب أن يبعثني الله يوم
القيامة زوجًا للرسول ..!»

سودة بنت زمعة

وحشة

الأيام تمضى ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهـاد ، والليالى كوالح مسهدات ، مشحونة بالذكريات ، ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى وحدته بعد « خديجة » : أم العيال وربة البيت والشريكة فى الجهاد ، يخلو الى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ، ليسامر طيف التى ملأت دنياه

والصـحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم فيشـفقون عليـه من تلك الوحدة ، ويودون لو تزوج ، لعل فى الزواج ما يؤنس وحشته بعد « أم المؤمنين » الراحلة

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث الى الرسول ابان حداده ، فى موضوع الزواج ، فلما انتهت أيام الحـداد ، كانت « خولة بنت حكيم السلميـة » (1) هى التى سعت اليه ذات مساء متلطفة مترفقة ، تقول :

« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! »

فأجاب : « أجل ، كانت أم العيال وربة البيت »

فتشاغلت « خولة » بالنظر الى بعيد ، ثم أقبلت على الرسول فاقترحت عليه فجأة أن يتزوج !

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا ، يصغى الى وجيب قلبـه العامر بذكرى الراحلة ، ويتذكر « نفيسة بنت منية » حين جاءته منذ نحو خمس وعشرين سنة ، تحدثه فى الزواج وتعرض عليه « خديجة بنت خويلد » !

ثم آب الى محدثته وسألها فى نبرة عتاب :

ــ مَنْ .. بعد خديجة ؟

فردت « خولة » على الفور ، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب : « عائشة .. بنت أحب الناس اليك » !

---

(1) الاستيعاب ــ والسمط الثمين ١٠٢ ــ وانظر تاريخ الطبرى ٣\١٧٥

وتفتح قلب الرسول حين ذكر صاحبه : أول رجل صدقه وآمن به بعد ابن عمــه على ، ومولاه زيد ، ثم وقف الى جانبه من اللحظة الأولى ، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أب وأخ وصاحب وصديق (١)

وذكر الرسول مع « أبى بكر » ابنته عائشــة ، تلك الصبيــة اللطيفة الحلوة ، التى طالما آنسته بمرحها ولطفها ، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة ..

ولم يستطع أن يقول لخولة : لا ..

ولو حاول أن يقولها ، لما طاوعه لسانه !

أيرفض بنتَ أبى بكر ؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة ، ومكانة لأبى بكر عند الرســول لم يظفر بها سواه ، وأنس الى تلك الصغيرة العزيزة ، الذكية الملامح ، اللطيفةِ المحيا ..

ــ لكنها ما تزال صغيرة ياخولة ..

وكان رد « خولة » حاضرا :

ــ تخطبها اليوم الى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج ..

حتى تنضج ؟..

لكن ، من للبيت يرعى شئونه ومن لبنات الرسول يخدمهن ؟

وهل جاءت « خولة » لتعرض زواجا آجلا ، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث ؟

كلا ، بل جاءت وفى خاطرها اثنتان : احداهما بكر وهى « عائشة بنت أبى بكر » .. والأخرى ثيب ، هى « سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، القرشية العامرية » وأمها « الشموس بنت قيس بن زيد » من بنى عدى بن النجار (٢)

وأذن لها الرسول فى خطبتهما ، فمرت أولا ببيت « أبى بكر » ثم جاءت

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٦٦/١ ، ٢٦٧

(٢) الاصابة جـ ٨ ــ والسيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤

بيت « زمعة » فدخلت على ابنته « سودة » تقول : (١)
ــ ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ياسودة ؟
فسألت « سودة » وهى لا تدرى مرادها :
ــ وماذا يا خولة ؟
قالت :
ــ أرسلنى رسول الله أخطبك عليه !
وجاهدت « ســودة » لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت فى صوت مرتجف :
ــ وددتُ !.. ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك
فدخلت « خولة » عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت :
ــ ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلنى أخطب عليه سودة
فصاح الشيخ :
ــ كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته ؟
أجابته خولة :
ــ تحب ذاك
فسألها أن تدعوها اليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :
ــ أى سودة ، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه ؟
فلم تقل الا كلمة واحدة :
ــ نعم (٢)
وهنا أشار « زمعة بن قيس » الى خولة أن تدعو اليه « محمــدا » ، فقامت تدعوه للزواج

(١) الاصابة ٨ ــ والسمط الثمين ١٠٢ ــ وتاريخ الطبرى ١٧٦/٣
(٢) الحوار بنصه منقول من تاريخ الطبرى : ١٧٦/٣

اغتراب وترمل

وشاع فى « مكة » أن الرسول قد خطب « سودة بنت زمعة » فكاد ناس لا يصدقون سمعهم ، فما فى مثل « سودة » مأرب ، وتساءلوا فى ارتياب : أرملة ، مسنة ، غير ذات جمال ، تخلف « خديجة بنت خويلد » التى كانت يوم خطبها الشاب اليتيم الفقير ، سيدة نساء قريش نسبا ومكانة ومالا ، ومطمح أنظار السادة من قريش ؟

كلا ، لن تخلف « سودة » أو سواها « خديجة » ، وانما تجىء الى بيت الرسول جبرا لخاطرها ، وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » من بنى عامر بن لؤى ، ذاك الذى هاجر بها فيمن هاجر [1] الى الحبشة ، ثم عاد وفى ظنه أن قريشا قد ثابت الى رشدها وكفت عن محاربة رجل منها قال : « ربى الله » ، فاذا الظن يخيب ، واذا قريش يزداد اضطهادها للمسلمين ضراوة ، وحقدها عليهم جنونا

ولم تك الا أيام حتى مات المهاجر العائد ، وترك أرملته من بعده ، قد أسلمتها محنة الاغتراب الى محنة الترمل

وذكر رسول الله أولئك النفر الثمانية من بنى عامر ، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر ، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة ، ترجمهم بالحجارة ، وتعفرهم بالتراب ، وتحاول أن تردهم قسرا الى متاهة الضلال ومهواة الشرك

من هؤلاء النفر الثمانية ، كان [2] مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرى » أخو سودة ، و « السكران بن عمرو بن عبد شمس » زوجها وابن عمها ، وأخواه « سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس » وابن أخيه « عبد الله بن سهيل بن عمرو »

---

(١) ابن هشام ٦٥٢/١ ــ والسمط الثمين ١٠١ ــ وانظر الاصابة لابن حجر ٨ ــ وراجع معه تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣

(٢) ابن هشام : السيرة ٣٥٢/١

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم ، وكلهن عامريات : سودة بنت زمعة ابن قيس بن عبد شمس ، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس (١)

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة ، برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها ، راضية بما هو أقسى من الموت ، فى سبيل الله

وتمثل الرسول « سودة » وهى تودع أرضا عزيزة حلّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها ، ثم تمضى الى مهجر مجهول ، وناس لا هى منهم ولا هم منها ، لسانهم غير عربى ، ودينهم غير الاسلام ، فلما آن لها أن تثوب من غربتها ، وتهبط « أم القرى » (٢) فاضت روح زوجها « السكران بن عمرو » .. كأنما كان يستمهل الموت ريثما يعود كيما يدفن فى ثرى الجزيرة ، مرقد من مضوا من الأهل والخلان..

وتأثر صلى الله عليه وسلم للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فما كادت « خولة بنت حكيم » تذكرها له ، حتى مد يده الرحيمة اليها يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذى ذاقت من نكد الحياة

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣٥٢/١ ـ وتاريخ الطبرى حـ ٢
(٢) الاصابة لابن حجر ، وابن اسحق ، والواقدى ـ انظر السيرة ٨/٢
وفى تاريخ الطبرى « ١٧٥/٣ » أن السكران لما هاجر الى الحبشة ، تنصر ومات بها

وهبت ليلتى لعائشة

وأصبحت « سودة » ذات يوم ، فاذا هى زوجة لرسول الله المبعوث بدين الاسلام ..

وداخلتها رهبة من جلال زوجها ، وقاست نفسها اليه صلى الله عليه وسلم ، ثم الى « خديجة » الزوجة الأولى ، ثم الى « عائشة » العروس الصبية المنتظرة ، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها

ولم تخدعها نفسها قط ، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب « محمد » — صلى الله عليه وسلم — حاجزا لا سبيل الى اقتحامه

وعرفت من اللحظة الأولى التى جمعتها بزوجها ، أن « الرسول » هو الذى تزوجها ، لا « الرجل » الذى لم تجرده النبوة من بشريته

وأيقنت دون ريب ، أن حظها من الرسول بر ورحمة ، لاحب وتآلف وامتزاج ..

لكن ذلك لم يرعها ، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله الى تلك المكانة ، وأن جعل منها — أرملة السكران بن عمرو — أما للمؤمنين

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها فى بيت رسول الله ، وأن تخدم بناته ..

وكان يسعدها أن تراه صلى الله عليه وسلم يضحك من مشيتها — وكانت ثقيلة الجسم — وأن يأنس أحيانا الى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها

قالت له مرة :

« صليت خلفك الليلة يا رسول الله ، فركعتَ بى حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم ! »

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها ..

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة . روى « ابن اسحاق » :

«قَدِم بأسرى بدر ، وسودة بنت زمعة زوج النبى صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء ، فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء ، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب

« قال : تقول سودة : والله انى لعندهم اذ قيل : هؤلاء الأسارى قد أُتِىَ بهم . فرجعت الى بيتى ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، واذا أبو يزيد ، سهيل بن عمرو — أخو السكران بن عمرو — فى ناحية الحجرة ، مجموعة يداه الى عنقه بحبل ، فلا والله ما ملكت نفسى ، حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت :

— أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متم كراما ؟

« فوالله ما أنبهنى الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت :

— يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟

قلت :

— يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه الى عنقه أن قلت ما قلت ! » (١)

***

ظلت « سودة » تقوم على بيت الرسول حتى جاءت « عائشة بنت أبى بكر »فأفسحت لها « سودة » المكان الأول فى البيت ، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة ، وأن تسهر على راحتها

ثم وفدت على بيت الرسول زوجات أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب ، فما ترددت سودة فى ايثار زوجة الرسول الشابة باخلاصها ومودتها ، وان لم تظهر ضيقا بهؤلاء الزوجات اللائى يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول

لكنه صلى الله عليه وسلم ، أشفق عليها من الحرمان العاطفى ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه ، لكن بشريته لم تطاوعه ، فكان أقصى ما استطاعه لسودة ، أن

(١) السيرة : ٢/٢٩٩

يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، أما عواطفه فأنى له ــ وهو بشر ــ أن يقسرها على غير ما تهوى ، أو يخضعها بارادته لموازين العدل وضوابط القسمة !

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحس أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وان لم تبد منها بادرة شكوى أو تمرد . وما ساورته هذه الرغبة المنبعثة عن رحمة ورثاء ، حتى عزم على مكاشفة « سودة » بما رآه لها . فانتظر صلى الله عليه وسلم الى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها (١)

وسمعت النبأ ذاهلة ، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا ، فرفعت وجهها الى الرسول فى ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذى كاد يقضى عليها ..

واذ ذاك آبت اليها سكينتها فهمست فى ضراعة :

ــ أمسكنى ، ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك (٢)

ثم أطرقت محزونة ، وقد عز عليهـا أن تحمله صلى الله عليه وسلم على ما يكره ، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته فى تسريحها وهى التى تهب حياتها راضية لكى تدفع عنه لحظة حزن واحدة

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل ، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس على حبه عائشة بنت أبى بكر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وحفصة بنت عمر !.. وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا ، بل شعرت أنها اذ تأخذ ليلتها مثلهن ، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه !..

وهمت بأن تجيب فى قهر وعلى استحياء :

---

(١) فى رواية أخرى نقلها ابن حجر فى الاصابة ١١٧/٨ ــ أنه صلى الله عليه وسلم بعث اليها بطلاقها ، «فقعدت على طريقه ، فناشدته أن يرجعها ، وجعلت يومها وليلتها لعائشة، ففعل»

(٢) ابن حجر : ١١٧/٨

ـ سرحني يا رسول الله !

لكن الكلمات تعثرت فى حلقها ، فخرجت أشبه بحشرجة محتضرة !

وطال عذابها ، وطالت حيرتها ، ورسول الله الى جانبها ينظر اليها صامتا فى اشفاق وتأثر.

وفجأة ، لاح لها خاطر سكنت له نفسها ، فرنت الى الرسول فى اعزاز ثم قالت فى هدوء :

ـ أبقنى يا رسول الله ، وأهب ليلتى لعائشة (١)

فاهتز « محمد » صلى الله عليه وسلم تأثرا بهذه العاطفة الفياضة وذاك الحب السمح الكريم ، وراعه أن يأتى سودة ليسمعها كلمة الطلاق ـ وما أبغضها ! ـ فيكون جوابها هذا الايثار النبيل ، تتحرى به مرضاة (٢) الزوج الكريم

وانجابت ظلمة الليل ، فخرج محمد الى المسجد لصلاة الفجر ، وقامت «سودة بنت زمعة» فى مخدعها تصلى وقلبها عامر بنشوة الرضى والايمان !

***

فلندعها فى صلاتها راضية مطمئنـــة ، شاكرة لله أن ألهمها هــذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزى بالحرص على الأزواج فى مثل سنها العالية !

---

(١) الاصابة : ١١٧/٨ ـ وصحيح مسلم ـ وانظر السمط الثمين ص ١٠٣ ـ ويقال انهـا قد أشرفت يومئذ على المئة !

(٢) السمط الثمين : ص ٧

الفصل الرابع

عائشة بنت أبي بكر

الزوجة الحبيبة

"أي بنية، خفضي عليك الشأن
فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل
يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر
الناس عليها"

أم رومان
السيرة: ٣/٢١١

ونعود الى حيث تركنا « خولة بنت حكيم » تقترح على الرسول أن يتزوج عائشة بنت أبى بكر ، فيتفتح قلبه صلى الله عليه وسلم لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب النـاس اليه من صحبة وقربى ، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق

وأدع « لخولة » الحديث عن مسعاها فى هذه الخطبة فتقول فيما نقل الطبرى المؤرخ : (١)

« دخلت بيت أبى بكر فوجدت « أم رومان » أم عائشة ، فقلت لها :

ـ أى أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !

قالت :

ـ وما ذاك ؟

أجبت :

ـ أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة !

فقالت :

ـ وددتُ ، انتظرى أبا بكر فانه آت ..

وجاء « أبو بكر » فقلت له :

ـ يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرسلنى رسول الله أخطب « عائشة »

قال وقد ذكر موضعه من الرسول :

ـ وهل تصلح له ؟.. انما هى ابنة أخيه ..

« فرجعت الى رسول الله فقلت له ذلك ، فقال :

ـ ارجعى اليه فقولى : أنت أخى فى الاسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك

---

(١) تاريخ الطبرى ١٧٦/٣ ـ وانظر معه المحب الطبرى فى السـمط الثمين ص ٣١ ـ والاصابة : جـ ٨

تصلح لى

« فأتيت « أبا بكر » فذكرت له ذلك فقال :

ـ انتظرينى حتى أرجع ...

وقالت « أم رومان » تجلو الموقف للخاطبة :

ـ ان المطعم بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه « جبير » ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته ، « أم جبير » ـ وكانت مشركة ـ فقالت العجوز :

ـ يا ابن أبى قحافة ، لعلنا ان زوجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟ ! (١)

فلم يرد عليها « أبو بكر » بل التفت الى زوجها « المطعم » فقال :

ـ ما تقول هذه ؟

أجاب :

ـ انها تقول ذلك (الذى سمعت)

فخرج « أبو بكر » وقد شعر بارتياح لما أحله الله من وعده ، وعاد الى بيته فقال لخولة :

ـ ادعى لى رسول الله ...

فمضت « خولة » الى الرسول فدعته ، فجاء بيت صديقه أبى بكر ، فأنكحه عائشة وهى يومئذ بنت ست سنين أو سبع » (٢)

وكان صداقها خمسمائة درهم ..

ولا يذكر التاريخ عنها اذ ذاك ، الا أنها بنت ست سنين أو سبع . وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدى ، وأبوها أبو بكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر ، من بنى الحارث بن غنم بن كنانة

---

(١) المحب الطبرى : السمط الثمين ٣١

(٢) السيرة : ٢٩٣/٤ ـ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ ـ والاصابة : حـ ٨

وقد عُرف قوم عائشة ــ بنو تيم ــ بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأى ، كما كانوا مضرب المثــل فى البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن

ثم كان لأبيها الى جانب هــذا الميراث الطيب ، شهرة ذائعة فى دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وأجمع مؤرخو الاسلام على أنه «كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته » (١)

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أضاف « أبو بكر » الى هذا كله مجدا جديدا ، أن كان الرجل السابق الى الاسلام ، المناضل عنه بكل ما يملك ، الداعى اليه فى شجاعة وحماسة . ولمن شاء أن يرجع الى « سيرة ابن هشام » (٢) ليقرأ فى الجزء الأول ، أسماء من أسلم من الصحابة بفضل أبى بكر واستجابة لدعوته . وحسبنا أن نذكر منهم هنا : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وســعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ..

وكان رسول الله يقول : (٣)

« ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن قحافة ، ماعكم ــ أى ما تلبث ــ حين ذكرته له وما تردد فيه »

وسُمع عليه الصلاة والسلام يقول :

« ما نفعنى مال قط ، ما نفعنا مال أبى بكر » . قيل فبكى « أبو بكر » وقال : « يا رسول الله ، وهل أنا ومالى الا لك ؟ »

---

(١) السيرة : ٢٦٧/١ ــ وانظر معه مناقب أبى بكر فى صحيح البخارى : ٢٠٠/٢
(٢) ٢٦٧/١
(٣) صحيح البخارى : ٢٠٠/٢، ط مصر

مألوفة ...

كان حسب « عائشة » أن تكون بنت هـذا الصاحب الوفى والصديق الكريم ، ليفتح لها الرسول من دنياه موصد الأبواب .. لكنها كانت الى جانب هذه البنوة ، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضير

وقد ولدت بمكة فى الاسلام ، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث ، فلم يكفها أن تكون مسلمة بالبنوة لأب مسلم ، بل أسلمت (1) قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء ، وكان المسلمون اذ ذاك قلة معدودة

وعرفها محمد ، صلى الله عليه وسلم ، منذ طفولتها الباكرة ، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية ، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة ، مع فصاحة فى اللسان وشجاعة فى القلب ، أن كان الذى تولى حضـانتها جمـاعة من بنى مخزوم . وبلغ من اعزاز الرسول لها أن كان يوصى بها أمها قائلا :

« يا أم رومان ، استوصى بعائشة خيرا واحفظينى فيها »

فاذا رآها يوما غاضبة ، وقف فى صفها وقال لأمها فى عتاب رقيق :

« يا أم رومان ، ألم أوصِكِ بعائشة أن تحفظينى فيها ؟ »

***

ولم تدهش « مكة » حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مقررا . ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الرسول أنفسهم موضعا لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء ، أن يتخذ من زواج محمـد صلى الله عليه وسلم بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام ، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه الا سلكوه ، ولو كان عبثا وبهتانا

---

(1) الاصابة : ج ٨

وماذا كانوا عساهم يقولون ؟

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها على أبعد تقدير ؟

لكنها قد ذكرت قبل أن يخطبها « محمد بن عبد الله » على « جبير بن مطعم بن عدى » بحيث لم يستطع « أبو بكر » أن يعطى كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبى جبير

فهل ينكرون أن يكون زواج بين صبية فى سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين ؟

وأى عجب فى مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف فى تلك البيئة الى رجل فى سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن ؟ لقد تزوج «عبد المطلب» الشيخ من « هالة » بنت عم « آمنة » فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من ترب هالة « آمنة بنت وهب »

وسيتزوج « عمر بن الخطاب » من بنت على بن أبى طالب ، وهو فى سن جدها !

ويعرض « عمر » على « أبى بكر » أن يتزوج ابنته الشابة « حفصة » وبينهما من فارق السن مثل الذى بين الرسول وعائشة

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والاقليم ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه « الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء » ، ويقيسون بعين الهوى ، زواجا عقد فى مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم فى الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهى سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة فى الجزيرة العربية ، بل فى ريف مصر وأكثر مناطق الشرق . وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

« كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذى تنموه

نســاء العرب ، والذى يسبب لهن الهرم فى أواخر الســنين التى تعقب العشرين ...

« ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد .. نظروا اليه من وجهة نظر المجتمع العصرى الذى يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك ؛ كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا فى أن هذه العادة لازالت قائمة فى شرق أوربا ، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال الى سنين قليلة ، وانها ليست غير عادية اليوم ، فى بعض المناطق الجبليــة البعيــدة بالولايات المتحدة .. » (١)



(١) بودلى : الرسول ص ١٢٩ من الترجمة العربية

الهجرة

لم يرض « محمد صلى الله عليه وسلم » أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهى حداثتها ، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها : بل تركها حيث هى فى بيت أبيها ، تمرح لاهيــة مع لداتها وصــواحبها وأترابها خلية البال ..

وكان كل حظه منها أن تسرع اليه كلما مر ببيت « أبى بكر » فتكاد تنسيه بلطفها وايناسها ، المشاغل الجسام التى تنتظره لدى الباب ، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يستشعرها كلما أوى الى منزله وحيدا غريبا ... وحيدا ، وان كان فى عصمته « سودة بنت زمعة » تتفانى فى خدمته وتقوم على شئون داره وبناته

غريبا ، وان يكن فى « مكة » ، بلد آبائه وأجداده منذ ما لايحصى من الدهور والأحقاب

وطاب له أن يسعى الى بيت صاحبه « أبى بكر » كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة ، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه فى فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله بكل عظمته وجلاله ومهابته ووقاره ، يرتاح اليها ويأنس لصحبتها ويجد فى عالمها المرح ما يجذبه اليه ، حيث يشاركها لهوها فى بساطة حلوة وألفة حبيبة

وازدهاها « ألا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، اما بكرة واما عشية » (١)

وذات يوم ــ وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن مكة الى المدينة مهاجرين ، فلم يتخلف (٢) مع الرسول الا من حبس أو

---

(١) الاصابة جـ ٨ ــ والسيرة : ١٢٨/٢

(٢) ابن هشام : السيرة ــ ١٢٣/٢

فتن ، عير أبى بكر وعلى بن أبى طالب ــ علت شمس الضحا حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت «عائشة» فى فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب ، فأصغت فى لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز

وبادرت الى الباب تفتحه مشـــوقة ، فما لمح « أبو بكر » شـــخص الرسول قريبا من الدار فى تلك الســـاعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

«ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة الا لأمر حدَث»

فلما دخل الرسول تأخر له « أبو بكر » عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فأمسكت « عائشة » أنفاسها ، وكذلك فعلت أختها « أسماء » ، ووقفتا خاشعتين تترقبان ..

وتكلم الرسول فقال لصاحبه دون أن ينظر الى من فى الحجرة :

ــ أخرج عنى مَنْ عندكَ ! (١)

فأجاب الصديق :

ــ يا رسول الله ، انما هما ابنتاى ..

ثم أضاف مستفسرا فى قلق :

ــ وما ذاكَ فداكَ أبى وأمى ؟

قال الرسول :

ــ قد أذن لى فى الخروج والهجرة ...

فهتف الصديق :

ــ الصحبة يا رسول الله .. الصحبة !

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول فى الهجرة فيقول له : (٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة ــ ١٢٩/٢ وانظر تاريخ الطبرى : ٢٤٥/٢

(٢) ابن هشام ــ السيرة : ١٢٨/٢

ــ لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا !

فيطمع فى أن يكونه ..

وتذاكر الصاحبان ــ على مسمع من عائشة وأسماء ــ ما كان من غيظ قريش «حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذروا خروج رسول الله اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ــ وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا الا فيها ــ يتشاورون فيما يصنعون فى أمر الرسول .. (١)

« وكان فيهم عتبة بن ربيعة ــ أبو هند ــ وشيبة أخوه ، وأبو سفيان ابن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن خزام ، وأمية ابن خلف ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش

واستقروا آخر الأمر على رأى لأبى جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا ، فيعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا الى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ! (٢)

وأذن لرسول الله فى الهجرة ، واختار أبا بكر له صاحبا !

وأحست « عائشة » ألما وخوفا من الفراق الوشيك ، وتطلعت الى الرسول الحبيب ثم الى أبيها ، فما راعها الا أن رأته يبكى من الفرح

وما شعرت قط ــ فى سنها الغضة ــ قبل اليوم أن أحدا يبكى من الفرح ، حتى رأت أباها يفعل يومئذ (٣)

***

وبدأ التأهب لرحيل عاجل ..

(١) ابن هشام السيرة : ١٢٤/٢ : ١٢٦ (٢) تاريخ الطبرى : ٢٤٣/٢

(٣) المرجع نفسه : ٢٤٦/٢

بعث « أبو بكر » يدعو اليه « عبد الله بن أريقط » ــ وكان دليلا ثقة ، وخبيرا بمجاهل الطريق ــ فدفع اليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت (١)

ودعا الرسـول اليه ابن عمه « على بن أبى طالب » فأسر اليه النبأ الخطير ، ثم استخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس (٢)

فلما حانت ساعة الرحيل ، وقف الرسول على مرتفع هناك ببيت أبى بكر ، فرنا الى « البيت العتيق » وقتا ، ثم أشرف على « أم القرى » وقال بصوت متهدج :

« والله انكِ لأحبّ أرض الله الىّ ، وانك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منكِ ما خرجت »

ثم استدار فنظر الى « عائشة » وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا ، وقد أذهلها الفراق المفاجىء السريع ، فما درت أفى يقظة هى أم تلك رؤيا منام

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هى كل ما بقى له ولأهله من مال (٣) ، ثم انطلقا وما يعلم أحـد فى « مكة » بخروجهما الا « على بن أبى طالب » وآل أبى بكر ..

وأخذ المهاجران طريقهما الى غار يعرفانه فى « جبل ثور » بأسفل مكة ، وبقيت « عائشة » فى الدار وحيدة ذاهلة

أما أخوها « عبد الله » فانطلق الى مجتمـع البلدة ، يتسـمع ما يقول الناس .

وأما أختها « أسماء » فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية الى الغار اذا جن المساء (٤)

وسمعت « عائشة » من أخيها « عبد الله » أن المشركين قد أحسـوا خروج الرسول ، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم

---

(١) و (٢) السيرة : ١٢٩/٢ ــ وتاريخ الطبرى : ٢٤٧/٢
(٣) ابن هشام ، السيرة : ١٣٣/٢
(٤) ابن هشام ، السيرة ٢ ، ٣٠/٢ ، ١٣١

وكادت نفسها لذاك تطير شعاعا ، لولا أن عصمها من اليأس ايمانها بالله ورسوله ، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها الى مولاهم « عامر ابن فهيرة » أن يرعى النهار فى رعيان أهل مكة ، فاذا أمسى أراح غنم أبى بكر على الغار !

وكانت مشغلة « عائشة » طول النهار أن تعد الدقائق وهى تمضى فى بطء كأنها أعوام ، مرهفة سمعها الى نبأ جديد ، فاذا ولى النهار واستعدت أختها « أسماء » لرحلتها المسائية ، حملتها « عائشة » تحياتها ودعواتها للراحلين العزيزين ، ثم وقفت تحدق فى الطريق مترقبة عودة « أسماء » وقلبها يذوب من لهفة وقلق

وتعود « أسماء » فتثب اليها عائشة معانقة ، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب ، واليد التى صافحتهما ، والأذن التى سمعت صوتهما ، ثم تجلس اليها لتسمع منها ما رأت من حالهما ..

وتحدثها « أسماء » عن مشقة الاقامة فى الغار ، وعما كان من حزن أبى بكر حين رأى الرسول فى ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة ، فقال :

« ان قتلتُ فانما أنا رجل واحد ، وان قُتلتَ أنت هلكت الأمة »

فيذهب الرسول عنه الخوف بقوله :

« لا تحزن ان الله معنا » (١)

وتظل « عائشة » تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة ، حتى ينال منها الجهد والسهد ، فتستسلم عيناها للغمض ، وتحوم روحها حول الغار القريب ، مأوى أعز من لها فى الوجود

ومر اليوم الثانى يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه ، ثم حان المساء وتسللت « أسماء » خفية تحمل الزاد ، فلما عادت قصت على « عائشة » كيف ان المطاردين بلغوا الغار ، وتلبثوا

---

(١) قران كريم : سورة التوبة ، من اية ٤٠

عنده برهة ، بل هموا بالنزول اليه ، لولا أن صدهم عنه نسيج منعنكبوت على وجه الغار ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه !

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون فى اقتحام الغار ، فقال للرسول :

ــ لو أن أحدهم نظر الى قدمه لرآنا ..

فكان جواب الرسول :

ــ ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ !

***

فلما كانت الليلة الثالثة ، وقفت « عائشة » فى مرقبها اثر نهار مشحون بالقلق ، ترصد الطريق .. وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت ، وهى مرهفة الحواس تحدق فى غسق الدجى لعلها تلمح شخص « أسماء » ، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها ، لعل هواء الليل يحمل اليها حسا من خطوات بعيدة !

ومضى وهن من الليل وهى فى وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب ، حتى أقبلت « أسماء » أخيرا تسرى على عجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس

وشل القلق حركة « عائشة » ، فوقفت حيث هى ، تحدق فى نطاق « أسماء » الذى عادت به من رحلتها ممزقا ، قد غاب شِق منه !

ورحمتها « أسماء » فعجلت لها بنبأ خروجهما سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها ، وأقبلت تحدث « عائشة » عما كان :

ففى هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر ، والتى اختيرت ليبدأ بها التاريخ العربى ، جاء الدليل، عبد الله بن أريقط البكرى، يسوق الراحلتين اللتين أودعهما اياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج الرسول وصاحبه ، وجاءت « أسماء » بطعامهما فى سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة الى الرحل ، فحلّت

نطاقها فشقتــه نصفين ، علقت السفرة بأحــدهما ، وانتطقت بالشــق الآخر (١)

ونظر « أبو بكر » الى الراحلتين يفحصهما ، ثم اختار أفضلهما فقربها الى الرسول قائلا : « اركب ، فداك أبى وأمى »

فركب الرسول ، ثم ركب « أبو بكر » وأردف خلفه مولاه « عامر بن فهيرة » ليخدمها فى الطريق

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا الى الجنوب فى طريق غير مطروق ، ووقفت « أسماء » تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد ، فعادت وحدها الى بيت أبيها ، وهى توجس خيفة من تنبه المطاردين ..

وغابت « عائشة » عما حولها ، ومضت تسرى بروحها فى أثر الراحلين ، فما راعهــا الا طرقات عنيفــة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فاذا نفر من قريش ــ فيهم أبو جهل بن هشام ــ يسألونها فى غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ »

أجابت :

« لا أدرى والله أين أبى ! »

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بالرسول منطلقا من الغار ، ساريا فى مجاهل الفلاة ، الى حيث لا تدرى !

فلم تشعر الا ويد « أبى جهل » ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ! (٢)

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون ...

***

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث الا عن تلك المطاردة العنيفة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جنّ خوفها أن

(١) السيرة ١٣١/٢ والاصابة : حـ ٨ ــ وتاريخ الطبرى : ٢٤٧/٢
(٢) السيرة ١٣٢/٢ ــ وتاريخ الطبرى : ٢٤٧/٢

بنجو بدعوته الى حيث يغدو مطمئنا وما لها اليه من سبيل [١]

ونجا الرسول وصاحبه ..

وتضاربت الأنباء فى وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن أتباع [٢] محمد هناك يخرجون اذا صلوا الصبح الى ظاهر المدينة منتظرين ، فوالله ما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال ..

واذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة رجل من يهود :

ــ يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء

فخرجوا مسرعين ليروا الرسول فى ظل شجرة ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرهم لم يكن رأى الرسول قبل ذلك ، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما الرسول ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثانى فأظله بردائه ، فعرفوا اذ ذاك نبيهم الكريم ! [٣]

وسرى النبأ فى أنحاء « يثرب » وتعالى الهتاف من كل مكان ، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية فى شوق ولهفة الى حيث تلقى المهاجرالعظيم ، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم ، تشق أجواز الفضاء !

وعرفت « عائشة » مكان الحبيب ..

وكذلك عرفت قريش ، حين لم تعد تجديها معرفة ، وجاء دورها لتنتظر فى خوف وذعر ماذا يأتى به الغد ..

انكمشت فى ذلة ، تجرع كأس الهوان ، أن أعجزها الظفر بمهاجر فرد ، خرج من « مكة » وليس معه غير صاحب شيخ ، ودليل غير مسلم ، ومولى أجير ..

---

(١) ابن هشام ، السيرة : ١٣٤/١ وانظر تاريخ الطبرى حوادث الهجرة
(٢) السيرة : ١٣٧/٢
(٣) تاريخ الطبرى : ٢٤٨/٢

العروس

لم تمض الا أيام حتى جاء « زيد بن حارثة » من « المدينة » ليصحب بنات الرسول اليها ، ومعه رسالة من « أبى بكر » الى ابنه عبد الله ، يطلب اليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجته « أم رومان » ، وابنتيه « أسماء ، وعائشة » (١)

وتهيأ الجمع للسفر ، وخرجوا صحبة يريدون مدينة الرسول ، وما تكاد الدنيا تسع « عائشة » من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت « أم رومان » مذعورة : (٢)

« وابنتاه ، وا عروساه ! »

وأسرع عبد الله بن أبى بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء

***

وفى « المدينة » كان الرسول يهيىء مقاما لعائشة

حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم أقام فى « قباء » أربعة أيام ، أسس خلالها أول مسجد فى الاسلام (٣)

وركب ناقته « القصواء » يوم جمعة ، فأدركته صلاتها فى « بنى سالم ابن عوف » فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مر بحى من أحياء يثرب خرج اليه رجاله مرحبين داعين :

« هلم الينا يا رسول الله ، الى العدد والعدة والمنعة »

فيجيب شاكرا :

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : حوادث الهجرة ـ والاصابة ٨

(٣) السيرة لابن هشام : ١٣٩/٢ ـ وتاريخ الطبرى : ٢٥٦/٢

« خلوا سبيل ناقتى »

فلما بركت الناقة ، اختار الرسول مبركها فبنى مسجده ومساكنه ..

وتنافس المهاجرون والأنصار فى البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينـة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد

وفى واحد من هذه البيوت أقامت « سودة بنت زمعة » ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على راحة الرسول وبنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ..

أما « رقيـة » فكانت فى « الحبشـة » مهاجرة مع زوجها « عثمان بن عفان »

وأما « زينب » فكانت لا تزال « بمكة » ، يمسكها زوجها « أبو العاص ابن الربيع » وكان لايزال مشركا

***

واذ تم بناء مسجد الرسول وبيته ، واستقر المسلمون فى دار الهجرة آمنين من اضطهاد عدوهم ، واطمأن بهم المقام ، تحدث « أبو بكر » بعد الهجرة بأشهر معدودات ، الى محمـد صلى الله عليه وسلم فى اتمام الزواج الذى عقده بمكة منذ ثلاث سنين

فلبى رسول الله راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار الى منزل صهره الصديق ، حيث كان يقيم فى بنى الحارث بن الخزرج

وتصف « عائشة » يوم عرسها فتقول (١) : « جاء رسول الله بيتنـا فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتنى ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشىء من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى اذا كنت عند الباب ، وقفت بى حتى ذهب بعض نفسى ، ثم أدخلتنى ورسول الله جالس على سرير فى بيتنا ، فأجلستنى فى حجره وقالت :

---

(١) الاصابة ٨ ــ والسمط الثمين ص ٣٢ ــ وتاريخ الطبرى : ١٧٦/٣

ـــ هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بى رسول الله فى بيتى ، ما نحرت على جزور ولا ذبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله »

وحمل اليهما كذلك قدح من لبن ، شرب الرسول منه ثم تناولته على استحياء فشربت منه ..

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق ، مشرب بحمرة . وقد انتقلت الى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد، من اللبن وسعف النخيل ، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض الا الحصير . وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر

وفى هذا البيت البسيط المتواضع بدأت « عائشة » حياة زوجية حافلة ، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد بعده ، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق فى حياة الرسول والاسلام

كانت صغيرة السن ، أو طفلة ـــ كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها ـــ لكنها بشهادة مستشرق منهم ، « منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبى بكر .. فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد .. » (١)

وأدق من هذا أن يقال ان « عائشة » قد اكتمل نموها فى هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عينى الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب (٢) الى شابة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة فى مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : « ان كان لك زوج فاستطعت أن

---

(١) بودلى : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٣٠ من الترجمة العربية
(٢) المسند : حـ ٦ ، صحيح البخارى ٣: ١٨٢/ ط الشرقية

تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى ! »
وتكره أن تلقى امرأة زوجها فى كآبة الحداد فتقول :
« لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام الا على زوج ! »

***

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذى تحبه « عائشة » بكل كيانها ، يشغل بالها فى كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط ألا مكان لسودة فى قلب الرسول ، وانما الذى كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذى ظفرت به « خديجة » قبلها من زوجها الرسول ، وتلك المكانة التى احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان !

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ، وهى راقدة هنالك بعيدا تحت ثرى مكة ، فما تستطيع «عائشة» أن تشتفى منها بدعابة قاسية ، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتى النضير ، أو تفاخرها بأنها زفت الى الرسول بكرا لم تعرف قط رجلا غيره

وحاولت « عائشة » أن تتجاهل هذه الضرة التى ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا . ذلك أن طيف « خديجة » بقى ماثلا أبدا أمام عينى زوجها ، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها فى مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه

وزاد فى قسوة الموقف أن الشهور مضت والأعوام ، و « عائشة » لا تنجب لزوجها ولدا ، على حين أنجبت « تلك العجوز من قريش » — كما كانت تسميها — البنين والبنات

وكانت عائشة تعرف فى زوجها ، وفى رجال قومها جميعا ، ذلك الحب القوى للأبناء ، والحرص على الانجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج — الذى أحبته جهد الحب — ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف هذا الزوج ومحبته ، وما يأخذها به ايمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه

وكانت بحيث تجد فى بنات محمد — زوجها الحبيب — ما يلطف من

وقدة ظمئهـا الى الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن ، لكن ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنـات ضرتها « خديجة » حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينهـا وبينهن ، بل تحس أن كل واحـدة منهن ، هى « خديجة » بلحمها ودمها ، تثير فيها أبدا شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها فى كل آن بما كتب عليها من حرمان

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء اخوتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة كى لايرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء «عبد الله ابن الزبير » منزلة الابن ، وبه كانت تكنى فيقال : « أم عبد الله » . وحين مات أخوها « عبد الرحمن » ضمت اليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

« فما رأيت والدة قط أبر منها »

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع فى قلب الرسول لم تبلغه أخرى بعد خديجة ، وما ظفرت به من حب الزوج ، وتدليله ، وايثاره ...

واذ هى سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها ، آملة أن تستطيع به يوما تناسى ضرتها التى ماتت ، فوجئت بزوجة جديدة تفد الى بيت النبى ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة « سـودة » . وتشاركها فى حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

ومن الزوجة الجديدة ؟

انها « حفصة » بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله الاسلام به !

وروع « عائشة » أن يتزوج « محمد » صلى الله عليه وسلم ـ عليها ، وما تزوج قط على خديجة ، حتى ماتت فى الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها ، وحب الرسول لها ، من ذلك الهم البغيض المرير الذى لم يرض الرسول لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

وجاءت من بعد « حفصة » زوجات أخريات ، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة ..

كان فيهن « زينب بنت جحش » الهاشمية الجميلة ، و « أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب » ، الحسناء الأبية المترفعة ، و«جويرية بنت الحارث» التى تأخذ العين بروعتها ، و«صفية بنت حيى» اليهودية الناعمة الساحرة ، و « أم حبيبة » بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد جيشها ..

ثم كانت هناك « مارية » المصرية الجذابة ، أم ابراهيم بن محمد

وريحانة بنت عمرو .. حسناء بنى قريظة ، لم يتزوجها الرسول ، لكنها أقامت فى ملكه ما عاش

وكان هذا بحيث يجعل « عائشة » تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام ، لكن يكذب من يزعم أن «عائشة» أساغت يوما مرارة الضرائر ، ويجهل البشرية من يظن أن « عائشة » استراحت من ألم حرمانها من الأبنـاء ووجدت فى كنيتها بأم عبد الله ، أو فى أمومتها للمؤمنين جميعا ، ما يخمد

شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب عزّ مثله فى الأزواج

ولم تدر « عائشة » أول الأمر كيف يدفع هذا الضر المحتوم ، فقد كانت تعرف — كما لم يعرف سواها — أن الرسول يتزوج عن حكمة ، وان لم تبرأ بشريته من رغبة

وكانت تعلم — ويعلم الناس جميعا — أن عائشة هى الزوجة الحبيبة المفضلة ، رغم تعدد الزوجات

فهل تسكن عن رضى واستسلام ؟

كلا ، وانما عليها أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها فى قلب الرسول مهما يكلفها الأمر ، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها ، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يتجرد من بشريته ولا يحمل « عائشة » أو غيرها من نسائه على التجرد منها

فلتستجب « عائشة » لفطرتها دون كبت أو قهر ، ولتكن لزوجاته مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية ، ولو جمحت بهن الغيرة ، وكلفته صلى الله عليه وسلم من أمرهن شططا

***

وكانت « عائشة » بين زوجات النبى أشدهن غيرة عليه ، ونضالا فى سبيل الاستئثار بحبه

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد « خديجة » ، وأنها وحدها التى تزوجها بكرا ، وأنها « عائشة بنت أبى بكر »

وقد نظرت الى ضرائرها تقيس نفسها اليهن ، محاولة قدرما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بانصاف ، لا لأنها تريد أن تعترف لهن بفضل أو ميزة ، ولكن لأن معرفة قوة الخصم أول سلاح للمحارب !

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل « سودة بنت زمعة » ، و « زينب بنت خزيمة » التى لم

تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات ، تظاهرهن « فاطمة بنت الرسول » التى أرادت لها « عائشة » منذ جاءت بيت محمد ، أن تكون لها ضرة وخصما

وقررت أن تختار من هؤلاء ، أبعدهن عن الخطر فى ميدان المنافسة ، فتوددت فى شجاعة ولباقة الى « حفصة بنت عمر » (١) متخذة من تقاربهما فى الأبوة سبيلا الى هذا التودد

واستجابت « حفصة » لهذا التودد وقد سرها أن تؤثرها « حبيبة الرسول » ، بالمودة ، وأن تعترف بأن بنت عمر ، أقرب زوجة الى بنت أبى بكر

واتخذت « عائشة » من « حفصة » موضع سرها منذ سمعت بزواج الرسول من « أم سلمة » فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس

وهونت « حفصة » من خطر «أم سلمة» فانها على جمالها كبيرة السن ، وان الجمال ليذبل سريعا فى مثل سنها ، فلتبق عائشة غيرتها لمن تستحق

وفعلت عائشة ...

ادخرت غيرتها للشابة الهاشمية الحسناء « زينب بنت جحش » وتأهبت لها قبل أن تجىء ، فما أعلن الرسول زواجه من بنت عمته ، بعد أن عاتبته فيها السماء ، حتى قالت عائشة فى غيرة وغضب :

« ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » (٢)

وراحت «عائشة» ـ تؤازرها حفصة ـ ترقب الزوجة الجديدة وتحصى الدقائق والساعات التى يقضيها الرسول معها ، فلما رأته يطيل المكث لديها ، فكرت فى حيلة تصرفه صلى الله عليه وسلم عنها

---

(١) فى حديث السيدة عائشة عن حزب النساء، أن حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية (رضهن) والحزب الاخر فيه ام سلمة وسائر الازواج (رضهن) أنظر السمط الثمين ص٣٩
(٢) ذكرت رواية أخرى فى كلمتها هذه .أنظر السمط الثمين ٨٢

وأشركت (١) معها ، حفصة وسـودة ، أيتهن دخل الرسول عليها اثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له :

« أكلت مغافير ؟ »

والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يطيـق الرائحة الكريهة

وجاء الرسول « عائشةَ » فتشممت أنفاسه وقالت : « انني أشم رائحة مغافير ، أكلت مغافير ؟ »

وكذلك قالت حفصة ..

ولما مر بسودة سألته مثل ذلك فأجاب : « لا »

قالت :

« فما هذه الريح ؟ »

قال :

« سقتني زينب شربة من عسل »

فقالت سودة بلهجة الخبيرة بمراعي البادية :

« رعَتْ نحلُه العرفطَ »

والعرفط : الشجر الذى يثمر المغافير

فما كان من الرسول الا أن حرم شرب العسل عند « زينب » من يومه

وأحست « سودة » ندما فقالت لصاحبتيها : « سبحان الله ! والله لقد حرمناه ! » (٢)

فنظرت اليها عائشة ، أن اسكتي !

***

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن « عائشة » حينـا عن أم سـلمة وزينب ، وان عرفت أن هاتين أحب زوجات الرسول اليه بعدها

واحدى هؤلاء الوافدات من كندة ، وثانية من مصر

(١ ، ٢) السمط الثمين : ٨٠ ، ٨١ – وفى رواية ان التى سقته شربة العسل هى السيدة حفصه (رضها)

أما الأولى فكانت « أسماء بنت النعمان » التى أحست « عائشة » خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها ، وقدرت أنها اذا لم تحل بينها وبين زوجها الرسول ، فسوف تكلفها من أمرها عسرا

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج !

وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها !

دعت اليها حفصة ، وأخرى ممن يحرصن على ارضائها ، فقالت لهما :

« قد وضع يده فى الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا »

واتفقن على خطة موحدة : أقبلن على العروس مهنئات ، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضا الزوج العظيم ومحبته ، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله اذا ما دخل عليها !

وفعلت المسكينة !

لم تكد ترى الرسول مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله (١) وفى حسابها انها تستجلب محبته ورضاه !

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :

« لقد عُذتِ بمعاذ »

وغادرها من لحظته ، وأمر أن تلحق بأهلها

فبعثت اليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام الا أن يبتسم ويقول :

« انهن صواحب يوسف ، وان كيدهن عظيم ! »

وبقى عند كلمته ، فلم يمسك تلك التى عاذت بمعاذ ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

***

أما « مارية » المصرية ، فلعل « عائشة » لم تأبه لها أول الأمر ، أن

---

(١) اختلفت الروايات فى اسم التى استعاذت بالله عندما دخل عليها الرسول ، فقيل هى أسماء بنت النعمان ، وقيل هى ابنة عم لها من كنده اكذلك ــ السيرة ٢٩٧/٤ . وفى الطبرى انها مليكة بنت دواد الليثية ــ ١٢٣/٣ ــ أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية ــ ١٣٩/٣

كانت أمة قبطية أجنبية وضعها الرق فى منزل دون منازل أمهات المؤمنين

وربما استكثرت « عائشة » عليهـا أن تعدها منافسة لها ، وهى التى تعيش خارج بيت النبى

لـكن « مارية » لم تكد تحمـل من رسـول الله ، حتى هاجت غيرة « عائشة » وغيظها ، فبدأت تكيد لها ، والرسول يحاول أن يحميها من كيد الحبيبة المدلة بمكانتها ، لكن الأمر خرج من يده ذات يوم : جاءت « مارية » تلتمس لقاءه فى شأن لها ، فخلا بها فى بيت حفصة التى كانت اذ ذاك تزور أباها . فلما عادت « حفصة » ألفت الستر مسدلا وعلمت أن مارية هنـاك ، فأقامت تنتظـر على أحر من الجمـر ، حتى اذا انصرفت « مارية » دخلت « حفصة » على الرسول باكية مقهورة ، ولم تهدأ حتى حرم الرسول « مارية » على نفسه ، موصيا حفصة بكتمان ما كان (١)

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة ، فكأنما أشعلت فيها النـار . واندفعت « عائشـة » تستثير ضرائرها ، فمـا زالت بهن حتى انضممن اليها وقد تناسين غيرتهن منها ، وكانت كلمتهن :

« صبرنا على ايثار الرسول لابنـة أبى بكر ، وما بقى الا تلك الأمة القبطية ، فأى هوان ! »

ولجت عائشة فى غيرتها ، والنساء يظاهرنها على زوجهن الرسول ، غيظا من « مارية » التى حملت دونهن بضعة من رسول الله ، وترفق الرسول بهن ما استطاع ، مقدرا بواعث هذا التظاهر ، لكنهن تمادين فى اللجاج الى حد الشطط ، مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن ..

وما كان صلى الله عليه وسلم فارغ البال اذ ذاك لهذا العبث النسوى المسرف ، ولا كان يستطيع أن يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل ، فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها ، وأعلن فى حزم وتصميم ، أنه منقطع عنهن ، منصرف عن مؤامراتهن الصغيرة الى شئونه الكبار

---

(١) السمط الثمين : ٨٥

وسرى الهمس بين المسلمين أن النبى مطلق زوجاته ، وانكمشت المتظاهرات فى بيت النبى حزينات نادمات ، أن جاوز الأمر ما قدرن ، وأوشكن على الوقوع فى الهوة التى حفرنها لمارية ، وما لهن من عاصم يقيهن سوء المصير ، اذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله

على أن «عائشة» ـ قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات ـ لم تفزع لغضب رسول الله ، بقدر ما فزعت لما مسه صلى الله عليه وسلم من مشقة . وكان قلبها يتمزق ، كلما تمثلت الحبيب يعود من ميدان الكفاح مثقل الكاهل بأجسم المسئوليات ، فيأوى الى خزانة له ذات مشربة ، يرقى اليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه « رباح » على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها ، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، وتنفض عنه غبار المعركة ، ولا من صوت ناعم يهدهد مضجعه حتى ينام !

ومضى شهر بأكمله والرسول فى شغل بنشر الدعوة ، و « عائشة » فى شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم فى عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته فى موضوع زوجاته

***

ولكن الرسول لم يطلق نساءه

والسماء لم تتخل عنهن ، بل اكتفت بانذارهن ان لم يتبن فعسى ربه ان طلقهن ، أن يبدله أزواجا خيرا منهن ! (١)

وطارت البشرى الى أمهات المؤمنين أن الرسول صلى الله عليه وسلم عائد الى بيته ، فوقفن بأبوابهن فى لهفة يلتمسن نظرة الى وجهه الكريم اذ يعود من معتزله ، على حين بقيت « عائشة » داخل مخدعها تستعد للقاء الحبيب العائد ، اذ كانت تعرف عن يقين أن اليها أولَ المطاف ! (٢)

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها ، ولاذت

---

(١) سورة التحريم
(٢) السمط الثمين : ٥٣

بكل ما استطاعت من تماسك لتتلقاه قائلة فى عتاب رقيق :

« بأبى أنت وأمى يا نبى الله ! قلتُ كلمــة لم ألق لها بالا فغضبتَ علىَّ ? ! »

واذ أقبل عليها مصغيا ، استطردت تقول فى دلال ودعابة حلوة :

« أقسمتَ أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين »

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام بابتسامة عذبة ، وقد سره أن يعرف أنها كانت تحصى ليالى الفراق عدا

وأجابها بأن شهرهما ذاك ، تسع وعشرين ليلة !

***

ونجت « عائشة » من محنة الهجر ، ومن قبل نجاها الله من محنة أدهى وأفدح ، وتجلت لها رحمته تعالي حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع ..

محنة الأفك

حدث ذلك فى السنة السادسة للهجرة ، بعد أن تزوج الرسول « زينب بنت جحش »

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب لغزو بنى المصطلق ، فأقرع بين نسائه على عادته كلما خرج فى سفر أو غزوة ، فخرج سهم « عائشة »

وانطلقت فى صحبته سعيدة هانئة ، وقد سرها أن تنفرد بزوجها الحبيب أياما وليالى لا تشاركها فيه أخرى

وكانت فألا حسنا على البطل الغازى ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير الى « المدينة » التى كانت اذ ذاك تهزج بأغانى النصر

وفى الطريق ــ قريبا من المدينة ــ أناخ العسكر فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا

وبلغ الركب المدينة فى مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين الى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج فى رفق ، فاذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث الرسول وصحبه ساعة من نهار ، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم فى الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة ..

حتى بدت من بعيد ، تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه « صفوان ابن المعطل السلمى »

واطمأن الرسول أن وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه حرفا

قالت : (١)

---

(١) السيرة : ٣١٠/٣ ــ وتاريخ الطبرى : حوادث السنة السادسة للهجرة (٦٧/٣)

« خرجت لبعض حاجتى ؛ قبل أن يؤذّن فى الناس بالرحيل ، وفى عنقى عقد لى فيه جزع « ظفار » ــ مدينة باليمن ــ فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت الى مكانى الذى ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم ــ وأنا بعيدة ــ فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه ــ اذ كنت خفيفة لم يثقلنى اللحم ــ فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكوا أنى فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت الى العسكر وما فيه من داع ، ولا مجيب ، قد انطلق الناس

« فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتـُقِدتُ لرُجع الىّ . فوالله انى لمضطجعة ، اذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ؛ فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىّ ــ وقد كان يراها قبل أن يضرب عليها الحجاب ــ فلما رآنى قال :

ــ انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما خلّفكِ يرحمكِ الله ؟ !

« فما كَلمته ...

« ثم قرب البعير فقال : اركبى

« واستأخر عنى ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتـُقدت حتى أصبحت ونزل الناس ، وطلع الرجل يقود بى » (١)

وأوت « عائشة » الى فراشها فنامت هادئة ، والمدينة يقظى لا تنام !

ذلك أن قوما من ذوى الهوى ، على رأسهم « عبد الله بن أبى بن سلول » ــ الذى ما برىء من حقده على الرسول وما فتىء يكيد له ــ تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات ، ليشفوا وترهم وأحقادهم

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣١٠\٣ ــ وتاريخ الطبرى : ٦٨/٣

وانتقل حديث الافك من دار « ابن سلول » ، ومن لفَّ لفه ، الى أحياء المدينـــة ، وردده ناس من المسلمين ، فيهم « حســـان بن ثابت » شاعر الرسول ، و « مسطح بن أثاثة » قريب أبى بكر وموضع بره ، و « حمنة بنت جحش » ، ابنة عمة النبى وأخت زوجته زينب !

وبلغ الحديث أذنى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما بلغ مسامع أبى بكر وأم رومان فصكها صكا ! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه «عائشة» بالشائعة الرهيبة ، أن كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق ، معتـــلة تشتكى شكوى شديدة ، فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شىء ، الا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة ، وقد عودها اذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنان وافر ، فأمست هذه المرة ولا حظَّ لها من ذلك اللطف والحنان الا أن يدخل عليها من حين الى حين ، وعندها أمها تمرضها فيسأل : (١)

« كيف تيكم ؟ » ، لايزيد على ذلك !

ولم تشأ أن تسأل الرسول عما يريبها من جفائه ، فقد كان يبـــدو لها واجما مشغول البال ، وكانت تحس بقلبها أنه صلى الله عليه وسلم يكابد هما ثقيلا ، فتماسكت متجلدة ، وهى تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التى غشيت دنياها . حتى جاوز جفاؤه احتمالها ، فقالت للرسول : « لو أذنت لى ، فانتقلتُ الى أمى ، فمرضتنى ؟ »

فكان جوابه أن قال فى جفاء : « لا عليكِ »

فتقول « عائشة » : (٢)

« فانتقلت الى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ...

« فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى « أم مسطح » بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، كانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم ، خالة أبى بكر . فوالله انها لتمشى معى اذ عثرت فى مرطها فقالت :

---

(١) السمط الثمين : ٦٤ وتاريخ الطبرى : ٦٨/٢ ط مصر
(٢) ابن هشام : السيرة ٣١١/٤ — والسمط الثمين ص ٦٥ وتاريخ الطبرى ٦٨/٣

ـ تَعِسَ مِسطَح !

قلت :

ـ بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا

فسألت فى دهشة :

ـ أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

قلت :

ـ وما الخبر ؟

قالت :

ـ نعم والله ، لقد كان ...

فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، قلت لأمى :

ـ يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟

قالت :

ـ أى بنية ! خفّضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، الا كثّرن وكثر الناس عليها ! (١)

لكن « عائشة » باتت مسهدة فما يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم

***

وبعيدا عنها كان الرسول يعانى مثل الذى تعانيه : قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم فادح ، وأذناه تصغيان الى الشائعات المرجفة بالسوء

وقد قام فى النـــاس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق؟.. والله ما علمت منهم الا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى »

---

(١) السيرة : ٣/٣١١ والسمط الثمين ٦٥ ـ وتاريخ الطبرى ٣/٦٨

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم فى محنته وعذابه ؛ ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة ، وعقيلة حرة ، فتختلط أصواتهم فى طلب الانتقام والتأديب ، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الافك من هؤلاء وأولئك ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر (١)

وتمضى عائشة فى وصف محنتها فتقول :

« ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليّ ، فدعا « على بن أبى طالب وأسامة بن زيد » فاستشارهما

فأما أسامة فأثنى عليّ خيرا وقال :

ـ يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منها الا خيرا ، وهذا الكذب والباطل

وأما « على » فانه قال :

ـ يا رسول الله ، ان النساء لكثير ، وانك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فانها ستصدقك

« فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريتى « بريرة » ليسألها . فقام اليها « على بن أبى طالب » فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

ـ اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقول بريرة :

ـ والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا الا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله !

ويخرج الرسول مثقل الكاهل محزون الفؤاد

ثم يعود بعد حين الى بيت أبى بكر ، فاذا عائشة هناك مقرحة الأجفان تبكى ، فتبكى لها زائرة عندها من الأنصار ، وأبواها ينظران اليها فى صمت وأسى

ولأول مرة منذ شاع حديث الافك ، جلس الرسول يحدث عائشة ..

---

(١) انظر حديث الافك بالتفصيل فى (صحيح البخارى) : ٢٧/٣ ط الشرقية وفى (السمط الثمين) ص ٦٣ وتاريخ الطبرى فى حوادث السنة السادسة ؛ ٦٧/٣ : ٧١

قال : (١)

« يا عائشة ، انه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتقى الله . وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة من عباده »

فما هو الا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت . وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها ، واذ ذاك تلفتت الى أبويها ، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله

واذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها :

« ألا تجيبان ؟ »

قالا معا بصوت تخنقه العبرات :

« والله ما ندرى بم نجيب ! »

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل فى كيانها ، ثم اتجهت الى زوجها الرسول تقول : (٢)

« والله لا أتوب الى الله مما ذكرتَ أبدا ! والله انى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى »

وحاولت أن تتذكر اسم « يعقوب » لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : « ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ثم صمتت

فلم يبرح الرسول مجلسه عندها ، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحى ، فسُجى بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقا وقلقا ، وأما هى فما فزعت ولا خافت ، أن كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها

ثم سرى عن رسول الله ، فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول :

« أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك ! »

(١ ، ٢) السمط الثمين ٦٧ — وتاريخ الطبرى ٦٧/٣

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم ، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح ، فأشارت الى عائشة أن تقوم الى زوجها . فقالت عائشة فى عزة واباء : « والله لا أقوم اليه ، فانى لا أحمد الا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى » (١)

ثم التفتت الى أبيها ، وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا ، فقالت له : « يا أبتاه هلا كنت عذرتنى ! ؟ » فأجاب : « أى سماء تظللنى وأى أرض تقلنى ان قلت بما لا أعلم ؟ »

أما الرسول ، فرنا اليها فى عطف وهو يتذكر ما كابدت من افك ظالم ، وخرج الى المسجد وتلا على الناس من وحى السماء :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولّى كِبَره منهم له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا : هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم »

« اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بهتان عظيم . يعِظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ، ويبين لكم الآيات والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢)

وجُلِد الذين أفصحوا بالفاحشة : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » (٣)

---

(١) السمط الثمين : ٦٧
(٢) سورة النور ، آيات : ١١ ١٩
(٣) سورة النور : آية ٤

العروة الوثقى

وعادت السيدة « عائشة » الى مكانها فى بيت الرسول ، تحف بها هالة من آيات النور ، ويزدهيها النصر الالهى الذى جعل براءتها قرآنا يتعبد به المسلمون ما بقيت الحياة ..

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة ، وتمرح ما شاء لها صباها ودلالها فى ظل الحبيب ، وتباهى ضرائرها قائلة :

« أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى ! »

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام :

« حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى »

أو تنقل اليهن ما كان من سؤال عمرو بن العاص للرسول : (١)

— يا رسول الله ، من أحب الناس اليك ؟

أجاب عليه الصلاة والسلام :

« عائشة »

قال عمرو :

« انما أقول من الرجال »

فأجاب الرسول : « أبوها ! »

وكان (٢) المسلمون يعلمون حب الرسول لعائشة وايثاره اياها ، فينتظرون حتى يكون فى بيتها ويبعثون اليه بالهدايا . ومع أن الرسول كان يرسل لكل زوجة من زوجاته نصيبها مما يتلقى وهو فى بيت عائشة ، الا أن الغيرة استفزتهن ، فتشاورن فى وضع حد لما يلقين من بنت أبى بكر

وانتهى بهن الرأى الى أن يلتمسن من « السيدة فاطمة الزهراء » مخاطبة أبيها صلى الله عليه وسلم فى الأمر ، واستجابت رضى الله عنها فدخلت على

---

(١) صحيح البخارى : ٢٠١/٢ ط الشرفية

(٢) السمط الثمين للطبرى : ص ٣٩

أبيها وعائشة عنده فقالت :

« يا أبى ، ان نساءك أرسلننى اليك ، وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة »

فسألها الرسول : (١)

« أى بنية ، أتحبيننى ؟ »

فهتفت بملء ايمانها :

« بلى يا أبى »

قال :

« فأحبيها »

وعادت الزهراء الى زوجات الرسول فنقلت اليهن ما سمعت ، فألححن عليها أن تعاود الحديث فى الموضوع ثانية ، لكنها أبت أن تحدث أباها عليه الصلاة والسلام بما يكره

واخترن من بينهن احدى اثنتين ، هما أحب نساء الرسول اليه بعد عائشة : زينب بنت جحش (٢) ، أو أم سلمة . فتحدثت اليه صلى الله عليه وسلم فيما يشكو نساؤه ، مرة ثانية وثالثة ، الى أن قال :

« لا تؤذينى فى عائشة ... » (٣)

وهكذا رد الرسول عن عائشة ضرائرها

وكذلك رد عنها « أبا بكر » حين كان يحاول فى عنف أن يخفف من غلوائها ..

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان الرسول يوسع لها العذر فيقول :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وقد يسألها :

ـ أغرتِ ؟

فتجيب :

(١ ، ٢) السمط الثمين للطبرى : ص ٤٠
(٣) المرجع نفسه : ص ٤١

ـ وما لى أن لا يغار مثلى على مثلك ؟ (١)

وصدقت « عائشة » ..

وكذب الذين ادعوا تجردها من البشرية وترفعها عن أهواء حواء وبراءتها من فطرة الأنثى

وأخطأت الزميلة « الدكتورة زهية قدورة » ، حين قالت فى رسالتها عن « عائشة أم المؤمنين » : « ان الغيرة لم تكن لتتغلغل الى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ... وان الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الاسلامى من الافرنج (٢) أن يصفوها .. ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن فى ارضاء زوجهن رسول الله »

سبحان الله !

وهل كان تحزبهن فى قصة المغافير ، وتظاهرهن ضد مارية ، من صنع الفرنجة ؟

أو كانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله اذا دخل عليها الرسول ، داخل ما تسميه الزميلة : الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ؟

أو كان اتفاقهن على مغاضبة الرسول اذ خلا بمارية وهى حِلٌ له ، من بين هذه الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر ؟

اللهم لا ، وانما كانت « عائشة » أنثى سليمة الفطرة ، ينزع بها ميراثها العاطفى الى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة

وماغيرتها المحتدمة العارمة ـ بعد هذا كله ـ الا مظهر حب عميق لرجلها الأوحد ، ودليل تعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ورغبة لا تقاوم فى الاستئثار به ..

ونظلمها ، ونظلم نبينا الكريم ، اذا تكلفنا نفى هذه الغيرة عنها ووصفنا

---

(١) السمط الثمين : ٨٠ .

(٢) فى السمط الثمين للمحب الطبرى ص ٣٩ : حديث عن عائشة رضى الله عنها . ان نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كن حزبين

ما بينها وبين ضرائرها « بالاتفاق الرائع »
وما لها ألا يغار مثلها على مثله ! ؟

***

كانت السنوات التى تلت محنة الافك حافلة بجليل الأحداث ..
وقد أقامت « عائشة » ما عاش الرسول تشهد أمجاده ، وتتلقاه عائدا مظفرا من غزواته ، وترقب دعوته وهى تنتشر وتمتد ، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل
ثم آن للبطل أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة ..
وآن للرسول البشر ، أن يرقد بعد طول نصب وسهاد
عاد من حجة الوداع الى « المدينة » فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة ، فخرج الى البقيع يحيى الراقدين هناك ..
فلما أصبح مر بعائشة فى الغداة فوجدها تشكو صداعا وتئن متوجعة :
« وا رأساه ! »
قال وقد بدأ يحس ألم المرض :
« بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! »
فلما كررت الشكوى داعبها بقوله :
« وما ضرك لو مُتِّ قبلى فقمتُ عليك ، وكفنتك ، وصليت عليك ، ودفنتك ؟ »
فصاحت وقد هاجت غيرتها :
« ليكن ذلك حظ غيرى ! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعتَ الى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك » (١)
فأشرق وجهه صلى الله عليه وسلم بابتسامة لطيفة ، وسكن عنه الألم هونا ما ، ثم قام يطوف بزوجاته ، لكن الألم ما لبث أن عاوده واشتد عليه حتى اذا وصل فى طوافه الى بيت « ميمونة » لم يعد يحتمل مغالبة ألمه ، فنظر الى زوجاته وقد تجمعن حوله ، ثم قال متسائلا :

(١) السمط الثمين : ٥٥ ــ والسيرة : ٢٩٢/٤ ــ وتاريخ الطبرى : ١٩١/٣

« أين أنا غدا ؟.. أين أنا بعد غد ؟ »

وأدركت نساؤه على الفور ما وراء سؤاله من تطلع الى يوم «عائشة» فطابت نفوسهن بأن يمرض رسول الله حيث أحب ، وقلن جميعا :

« يا رسول الله ، قد وهبنا أيامنا لعائشة » (١)

وانتقل الرسول الى بيت الحبيبة ، فسهرت عليه تمرضه وبودها لو تفتديه بالروح ، وحانت لحظة الرحيل ، ورأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها

قالت (٢) عائشة تصف اللحظة الرهيبة :

« وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر الى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول :

ـ بل الرفيق الأعلى من الجنة

قلت :

ـ خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحق

« وقبض رسول الله بين سحرى ونحرى .. فمن سفهى وحداثة سنى أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى »

***

وكادت تكون فتنة ، عصم الله المسلمين منها حين ألهم « أبا بكر » أن يقف فى المسلمين فيقول :

ـ أيها الناس ، انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت ..

ثم يتلو فيهم قوله تعالى فى كتابه المنزل على محمد بن عبد الله :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤/٢٩٢ والسمط الثمين : ٥٥ . وفى تاريخ الطبرى أنه صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشة ، فأذن له (٣/١٩١)

(٢) تاريخ الطبرى : ٣/١٩٧

انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »(١)

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها «أبو بكر» يومئذ !

ودفن الرسول فى بيت « عائشة »

وتولى أبوها الخلافة من بعده ...

***

وعاشت « عائشة » لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة ، وليأخذ المسلمون عنها نصف دينهم كما أمر رسول الله

قال الامام « الزهرى » : لو جمع علم عائشة ، الى علم جميع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل (٢)

عاشت لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية ، وتعرض لها صورة أصيلة رائعة ، ستظل تبهر الدنيا ما أدبر ليل أو أقبل نهار ..

عاشت لتشارك فى حياة الاسلام أعنف مشاركة ، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التى صنعت التاريخ الاسلامى منذ مقتل «عثمان بن عفان» رضى الله عنه ، وتقود الجيوش لمحاربة «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه

ثم ماتت فى السادسة والستين من عمرها ، بعد أن تركت أعمق الآثار فى الحياة الفقهية ، والاجتماعية ، والسياسية للمسلمين

وكانت وفاتها ــ على الأرجح ــ ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان عام ثمانية وخمسين (٣) ، وصلى عليها « أبو هريرة » ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل الى البقيع ــ كما أوصت ــ على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت ، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة ، فلم تر ليلة أكثر ناسا منها

---

(١) سورة آل عمران : اية ١٤٤

(٢) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤

(٣) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة ٥٨ هـ ــ والسمط الثمين ص ٨٢ ــ والاستيعاب : ١٨٨٥/٤

وأودع جثمانها مع أمهــات المؤمنين ، وقد ألغى الموت ما كان بينهــا وبينهن من غيرة وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذى احتدم أعواما فى ذلك الكيان الرفيق اللطيف

ونزل معها الى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير . والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمــد ، وعبد الله ابن أخيهــا عبد الرحمن (١)

ونامت أخيرا ، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حيــاتها منذ كانت فى السادســة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة !



---

(١) تاريخ الطبرى : وفى الاستيعاب : ٤/١٨٨٥ أنه نزل فى قبرها خمسة : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم ، وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن

الفصل الخامس

حفصة بنت عمر

حافظة المصحف الشريف

« يا بنية ، لا يغرنك هذه التي أعجبها
حسنها وحبُّ الرسول صلى الله عليه
وسلم لها . والله لقد علمت أن رسول
الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

عمر بن الخطاب

الأرملة الشابة

لم يشهد « بدرا » من بنى سهم غير رجل واحد ، هو [1] الصحابى الجليل « خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السمى القرشى » ، وكان من مهاجرى الحبشة وقد شهد « أحدا » كذلك ، ثم مات بعدها فى دار الهجرة ، وترك من ورائه أرملته « حفصة بنت عمر بن الخطاب »

وتألم « عمر » لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها ويخنق صباها

وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ، ورأى ابنته فى حزنها ، فبدا له — بعد تفكير طويل — أن يختار لها زوجا ، قد تأنس نصحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد ..

ووقع اختياره على « أبى بكر بن قحافة » صفى الرسول وصهره ، وصاحبه الصديق

وارتاح للفكرة ، فان أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه ، كفيل بأن يحتمل « حفصة » بما ورثت عن أبيها من حدة المزاج ، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر

وأرضاه أن يصهر الى أحب رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يتردد عمر ، بل سعى من فوره الى أبى بكر ، فحدثه عن «حفصة» والصديق يصغى فى عطف ومواساة

ثم عرض عليه أن يتزوجها ، وفى يقينه أن « أبا بكر » سيرحب بالشابة التقية ، ابنة الرجل الذى أعز الله الاسلام به

لكن « أبا بكر » أمسك لا يجيب

---

(١) انظر السيرة لابن هشام : ٦/٣ ، ٣٤١ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ — والاستيعاب والاصابة : حرف الخاء

وانصرف « عمر » واجدا ، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض «حفصة» بعد أن عرضها أبوها عليه

وسارت به قدماه الى بيت « عثمان بن عفان » وكانت زوجته « رقية » بنت الرسول قد مرضت بالحصبة — بعد عودتها من الحبشة — والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر ، ثم ماتت بعد أن تم النصر لأبيها والمؤمنين (١)

وتحدث عمر الى عثمان ، فعرض عليه « حفصة » وهو لايزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر ، وان حاول جهده أن يكظم غيظه ، فلعل الله قد اختار لحفصة « عثمان » وهو — تعالى — يعلم أى الرجلين أصلح للأرملة الشابة

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما ، جاءه بعدها فقال :

« ما أريد أن أتزوج اليوم ! » (٢)

فكاد « عمر » يتهاوى من قسوة الموقف ، ثم فار دمه ، فانطلق الى الرسول يشكو صاحبيه

أمِثلُ حفصة — فى شبابها وتقواها وشرفها — ترفَض ؟

وممن ؟ من أبى بكر وعثمان ، صاحبى الرسول وصهريه ، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر ، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا ؟

ودخل « عمر » على الرسول ، وما يملك نفسه من غيظ وألم ، فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله فى عطف ومودة عما يؤلمه ..

ونفض « عمر » لدى الرسول الأكرم ما يرهقه ويضنيه ، وكشف له عما كان من « أبى بكر بن أبى قحافة ، وعثمان بن عفان » ..

فابتسم الرسول قائلا :

« يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة »

---

(١) انظر حديث السيدة رقية فى كتابنا « بنات النبى »

(٢) هذه رواية الاستيعاب (١٨١١/٤) وفى رواية أن عمر عرض حفصة على عثمان ثم على أبى بكر — رضى الله عنهم . ارجع الى السمط الثمين ص ٨٣

وردد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ؟ »

وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة : أيتزوج الرسول من ابنته ؟

ذاك والله شرف لم تتطاول اليه أمانيه

ونهض الى الرسول يصافحه متهللا ، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض

وخرج مسرعا ليزف الى ابنته ، والى أبى بكر وعثمان ، والى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة

وكان أبو بكر أول من لقيه ، فما نظر اليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته ، فمد يده مهنئا معتذرا يقول : (١)

« لا تَجِدْ علىَّ يا عمر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها لتزوجتها »

ومضى كلاهما الى ابنته :

أبو بكر ليهون على « عائشة » من وقع الخبر

وعمر ليبشر « حفصة » بأكرم زوج

وباركت المدينة يد الرسول وهى تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جرح ابنته حفصة

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من « أم كلثوم بنت محمد » فى جمادى الآخرة ، من السنة الثالثة للهجرة

وتهيأ بيت النبى لاستقبال العروس الجديدة ...

---

(١) السمط الثمين : ٨٣ — والاستيعاب : ١٨١١/٤

السر المذاع

وجاءت العروس ، وفى البيت « سودة » و « عائشة »

أما « سودة » فرحبت بها راضية ، وأما « عائشة » فغاظهـا أن يأتيها الرسول بضرة ، وما فعل ذلك قط مع « خديجة »

وضايقها ألا تجد فى « حفصة » مغمزا ، فهى مَنْ هى ، شبابا وتقى ، وعزة نسب

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الدافق وأبيها الصديق ، وحظ « حفصة » من هذين ، ليس بالذى ينكر أو يجحد

و « عائشة » كانت تضيق حين يمضى الرسـول ليلة بعد أخرى فيبيت عند « سـودة » التى ما اكترثت لها عائشـة كثيرا ، فكيف يكون موقفها حين يبيت الرسول عند حفصة ؟

واحتـارت ماذا تفعل ، اذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضى عمر ويباركه الاسلام والمسلمون

وسـكتت على مضض وغيرة ، الى أن وفدت على بيت النبى زوجات جديدات ، فتناست « عائشة » ما كانت تجد من « حفصة » ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها اليها ، وأجدرهن بأن تقف معها فى وجه الخطر المشترك

وأدركت حفصة ، أنها اذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هى « عائشة » وقد سبقتها الى بيت الرسول ، والى قلبه ..

وربما جرح شعورها أن تعرف حب الرسول لعائشة ، لكنها حين تتابعت الضرائر ، وقفت دون تردد ، الى جانب بنت أبى بكر

وكان « عمر » يرقب موقفها فى قلق مبهم ، فيريبه هذا التقارب ــ غير الطبيعى ــ بين ابنتـه وبين بنت أبى بكر ، حتى اذا استبان له ما وراء

تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ولا مكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية المدللة ، ويردها عن جموحها فى انكار :

« أين أنتِ من عائشة ، وأين أبوكِ من أبيها ؟ »

واذ يسمع يوما من زوجته أن ابنتـه تراجع الرسول حتى يظل يومه غضبان ، ينطلق من فوره حتى يدخل عليها فيسألها ان كان ما سمعه حقا ؟ فاذا أجابت بأنه حق ، صاح يزجرها :

ــ تعلمين أنى أحذركِ عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية ، لا يغرنّك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

ويمضى عن « حفصة » ، بعد أن نكأ فى أعماقها جرحا حاولت جهـدها أن تداريه وتطويه ، فتستسلم لشجنها فترة ، ثم تثوب الى رشدها فتدركِ أن ليس أمامها الا الرضـوخ للواقع ، وتحاول من جديد أن تلتمس فى صحبة الشابة المرحة ، ومشاركتها فى معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية ، ما يشغلها عن ذاكِ الجرح المطوى ..

ويرخى لهما الرسول ما استطاع ، ويشفع لهما عنده أنوثة ضـعيفة تستثير رحمته ، وبنوتهما لأعز صاحبين

حتى خلا يوما بمارية فى بيت « حفصة » فعاد جرحها يقطر دما ، وتمثل لها أبوها يقول :

« والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ، ولولاى لطلقك ! »

فلما انصرفت « مارية » دخلت «حفصة» حجرتها وقالت للرسول : (١)
« لقد رأيتُ من كان عندكِ ، والله لقد سببتنى ، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك ! »

ثم استعبرت باكية ..

---

(١) السمط الثمين : ٨٥

ووقعت كلمتها من الرسول موقعا أليما ، فما كان ليهين بنت عمر ، وقد تزوجها تكريما لصاحبه

وأقبل عليها يترضاها (١) ، وهان عليه أن يسر اليها أن « مارية » حرام عليه ، فلتتناس « حفصة » ما كان ، ولتعتبره كأن لم يكن

ورضيت « حفصة » ..

وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه ، حتى اذا مضى عنها الغداة ولمحت عائشة قريبة منها ، لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوى من سر خطير، فنبأت به صاحبتها التى انتهزت الفرصة السانحة ، لتنال من غريمتها « الأمة القبطية »

ولم تقدر « حفصة » وهى تذيع السر لعائشة ، أنها بسبيل اشعال نار فى بيت الرسول ، فان عائشة لم تهدأ حتى جمعت نساء النبى فى مظاهرة ثائرة بمارية ، مصرة على ألا يبقى لها فى مدينة الرسول مكان

وتلا ذلك ما نقلنا عند الحديث عن عائشة (٢) ، من اعتزال الرسول نساءه مدى شهر من الزمان ، شاع فيه أنه صلى الله عليه وسلم مطلق زوجاته

والذى يعنينا هنا ، هو ما يتصل بحفصة وأبيها « عمر » فقد كانت هى التى نبأت بالسر الذى أوصاها الرسول أن تكتمه ، فأشعلت النار من حيث لا تدرى ولا تقدر

فيقال ان الرسول طلق «حفصة» فعلا، وهو خبر يرويه «ابن‌حجر» (٣) من طرق شتى ، اتفقت على أن الرسول طلق حفصة تطليقة واحدة ، ثم ارتجعها ..

وفى هذا الارتجاع تختلف الروايات ، فتذهب رواية" الى أن ذلك كان رحمة بعمر الذى حثا التراب على رأسه وقال : « ما يعبأ الله بعمر وابنته

(١) السمط الثمين : ٨٥
(٢) ص ٨٢ : ٨٤
(٣) الاصابة : ٥٢/٨ — وانظر معه الاستيعاب : ١٨١٢/٤

بعــدها » . فنزل جبريل من الغد على النبى صلى الله عليه وسلم فقال :
« ان الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر »

وفى رواية أخرى ، ان جبريل نزل على الرسول فقال له :

« أرجع حفصة فانها صوامة قوامة ، وانها زوجتك فى الجنة » (١)

ويبدو لى أن هذا الطلاق والارتجاع ، قد كانا قبل أن تستفحل ثورة « عائشة » ومن معها من نساء النبى ، فلما اعتزلهن الرسول ، كان من الطبيعى أن يكون احساس « حفصة » بالندم أوفر من احساس أمهــات المؤمنــين الأخريات ، وشعورها بالخطــأ فى حق الرســول ، أفدح من شعورهن . فما كان لها ــ وهى التقية العابدة ، بنت عمر بن الخطاب ــ أن تذيع سرا ائتمنها عليه الرسول ، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان ، ولاكان لها أن تلقى ترضية الرسول لها ، واكرامه اياها ، بمثل ذلك الجحود والنكران

وفى الاصابة (٢) :

« دخل عمر على ابنته وهى تبكى فقال :

ــ لعل رسول الله قد طلقك ؟ انه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلى ، فان كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا

وخرج الى المسجد قلقا ، فألفى المسلمين هناك ينكتون الحصا مطرقين ويقولون : طلق رسول الله عليه وسلم نساءه

ولم يكن أحد قبل ذلك قد جرؤ على أن يكلم الرسول فيهن منــذ اعتزلهن . لكن « عمر » ــ وابنته هى السبب ــ لم يطق على ذلك صبرا ، بل قصد الى الخزانة التى يقيم بها الرسول ، وغلامه « رباح » قائم على عتبتهــا ، فاســتأذن عمر فى الدخول على الرســول ، وكرر النــداء ، و « رباح » لا يجيب

هنالك رفع « عمر » صوته وقال فى ضراعة وأسى :

---

(١) جاءت الروايتان فى السمط الثمين : ٨٥ ، والاستيعاب : ١٨١٢/٤
(٢) الجزء الثامن : ص ٥٢

« يا رباح ، استأذن لى عندك على رســول الله صلى الله عليه وسلم ، فانى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقهـا لأضربن عنقها »

وبلغ صوته سمع الرسول فتــأثر ، وأذن له فدخل ، وأجال بصره فى الخزانة وبكى ..

قال الرسول :

ــ ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟

فأشار « عمر » الى الحصير الذى كان الرسول مضطجعا عليه وقد أثر فى جنبه ، والى قبضة من شعير ومثلها من قرظ ، كانتا كل ما بالخزانة من طعام

ثم أمسك عبرته وقال :

ــ يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ ان كنتَ طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك

فابتسم له الرسول ، ورد اليه طمأنينته ، فما طلق نساءه وانما هجرهن شهرا ..

ورُدَّت الروح الى «عمر» ، فاستأذن الرسول ونزل الى المسجد فنادى بأعلى صوته :

« لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه »

وجاء الرسول من بعده فتلا قوله تعالى :

« يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضـاة أزواجك والله غفور رحيم . قـد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . واذ أسـرَّ النبى الى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه ، عرَّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟.. قال : نبأنى العليم الخبير . ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة

بعـد ذلك ظهير . عسى ربه ان طلقكن أن يبـدله أزواجا خيرا منكن : مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ، ثيبات وأبكارا » [١]



---

(١) سورة التحريم : الآيات ١ : ٥ ، وأنظر الاقوال الأخرى فى سبب النزول ، فى تفسير الطبرى ، وفى الكشاف للزمخشرى ، الجزء الرابع ط مصر

الوديعة الغالية

ووعت نساء النبى هــذا الدرس السماوى ، وثابت « حفصــة » الى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما

ولا نعرف أنها من ذلك الحين ، قد اشتركت فى مؤامرة نســوية ببيت الرســول ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلمــا انتقل صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه الأعلى كانت « حفصة » هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا ــ وفيهن عائشة ــ لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم

ذلك أن « عمر » نصح « أبا بكر : خليفة الرسول » أن يبادر فيجمع ما تفرق من القرآن الكريم فى صحف شتى ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضى حفظته الأولون

فاســتجاب « أبو بكر » ، وجمــع المصحف الكريم وأودعه عند أم المؤمنين « حفصة بنت عمر »

وبقى المصحف لديها فى مأمن ، حتى أخذه أمير المؤمنين « عثمان بن عفان » فى خلافته ، فنسخ منه النسخ الأربع التى وزعت على الأمصــار ، وأمر باحراق ما عداها ، حسما لما يحتمل من اختلاف المسلمين فى قراءة كتاب الاسلام

وتفرغت « حفصة » من بعد ذلك للعبــادة ، حتى اذا كانت « الفتنة » وتهيأت « عائشــة » للخروج من مكة ، فى الجيش المطالب بدم عثمان ، أرادت أن تصحب « حفصة » معها ، فكرهت هــذه أن ترد طلبا للزميلة التى آثرتها بمودتها حين جمعهما بيت الرسول ، وتهيأت لمصاحبتها ثم عادت فعدلت عن الخروج فى الفتنة ، بعد أن حذرها أخوها « عبد الله بن عمر » من هذا الخروج

وعاشت صــوامة قوامة ، حتى ماتت فى أخريات عهد « عثمان » أو

فى السنين الأولى من عهد « معاوية » (١)

وخلدت فى التاريخ : أم المؤمنين الحافظة لأول نسخة من المصحف الشريف ، كتاب العربية الأكبر ، ومعجزة الاسلام الخالدة



(١) رواية الواقدى أنها ماتت رضى الله عنها فى شعبان سنة ٤٥ ، وفى رواية اخرى أوردها المحب الطبرى فى السمط (٨٦) أنها ماتت سنة أحدى وأربعين ، وقيل ماتت فى خلافة عثمان (رضه) ـ وانظر الاستيعاب : ١٨١٢/٤

الفصل السادس

زينب بنت خزيمة

أم المساكين

"وكانت تسمى أم المساكين
لرحمتها إياهم، ورقتها عليهم"
ابن هشام ٤ : ٢٩٦

لم يكن قد مضى على مجيء « حفصة » الى دور النبى غيرُ وقت قصير ، حين وفدت زوجة رابعة ، كانت هى الأخرى أرملة شهيد عزيز من شهداء « أحد »

تلك هى « أم المؤمنين ، زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر »

ويبدو أن قصر مقامها ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد صرف عنها كتّاب السيرة والتاريخ ، فلم يصــل الينا من أخبــارها سوى بضع روايات متناثرة شتى ، لا تسلم من تناقض

وكأنما كان الذى يعنى المؤرخين من أمرها ، أنهــا زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية ، وقد استشهد زوجها فى أحد فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم ثم لم تلبث أن ماتت

أما اسم الزوج الذى استشهد ومات عنها فيختلفون فيه :

قيل (١) هو « عبد الله بن جحش » ابن عمة الرســول وأخو زوجته زينب

وقيل (٢) : « كانت عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف » وأضاف ابن حجر وابن‌عبد البر: « ثم خلف عليها شقيقه عبيدة بن الحارث»

وقيل ثالثة : « كانت قبل الرسول عند عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها » (٣)

واختلفوا كذلك فى وقت استشهاد زوجها :

ففى « الاصابة » انه عبد الله بن جحش ، وقد استشهد بأحد

---

(١) ابن حجر : الاصابة ٩٢/٨ — والاستيعاب: ١٨٥٣/٤

(٢) تاريخ الطبرى : ٣٣/٣ ، ١٧٩ — والاصابة٩٤٤/٨ — والسمط الثمين : ١١٢

(٣) السيرة لابن هشام : ٢٩٧/٤

وعن « ابن الكلبى » : كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها ، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها ببدر ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفى الطبرى :

« وفى هذه السنة ـ الرابعة ـ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة من بنى هلال ، فى شهر رمضان .. وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها » (١)

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من الرسول :

فعن « ابن الكلبى » أن الرسول خطبها الى نفسها فجعلت أمرها اليه فتزوجها ..

وعن ابن هشام : (٢)

« زوجه اياها (عمها) قبيصة بن عمرو الهلالى ، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم »

واختلفوا رابعة فى المدة التى أقامتها ببيت النبى :

ففى الاصابة رواية تقول : « كان دخوله صلى الله عليه وسلم بها ، بعد دخوله على حفصة بنت عمر ، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت »

ورواية أخرى عن ابن الكلبى :

« فتزوجها فى شهر رمضان سنة ثلاث ، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت فى ربيع الآخر سنة أربع »

ويقول ابن العماد :

« وفيها ـ يعنى السنة الثالثة ـ دخل بزينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت » (٣)

***

ولم تكن عناية المحدثين بتتبع أخبارها وتحقيق هذا الاختلاف فيها ،

(١) تاريخ الطبرى ٣/٣٣
(٢) السيرة : ٤/ ٢٩٦
(٣) شذرات الذهب : أخبار السنة الثالثة

أكثر من عناية الاقدمين : يجزم « الدكتور هيكل » بأنها قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذى استشهد يوم بدر ، فلم تلبث الا سنة أو سنتين ، ثم قبضها الله فكانت بعد خديجة ، الوحيدة من أزواج النبى التى توفيت قبله » (١)

وينقل بودلى :

« .. تبع زواجَ محمد من حفصة زواج" آخر ، وكان زواجا شكليا أكثر من أى شىء آخر . كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث ــ ابن عم لمحمد سقط فى بدر ــ وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وما ضمها محمد الى نسائه الا بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا ، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر (٢)

ومر آخرون بزينب ، فلم يذكروها فى كثير أو قليل

***

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتاب السيرة فى أمر زينب بنت خزيمة ، فقد اتفقوا جميعا على شىء واحد لم يختلف فيه اثنان ، ذاك هو وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد يعرض اسمها فى أى كتاب مما أوردنا الا مقرونا بلقبها الكريم : أم المساكين (٣)

فيقول ابن هشام :

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم » (٤)

وفى الاصابة : (٥)

« وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم »

ومثل ذلك فى الطبرى (٦) وشذرات الذهب (٧) والاستيعاب (٨)

---

(١) حياة محمد : ٢٨٨ ــ وانظر تاريخ الطبرى : ١٧٩/٣
(٢) الرسول : ١٧٦
(٣) السمط الثمين : ١١٢ وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد
(٤) السيرة : ٢٩٦/٤
(٥) الجزء ٩٤/٨
(٦) ٣٣/٣
(٧) شذرات الذهب : ١٠/١
(٨) حـ ٤ ص ١٨٥٣ ط نهضة مصر

وقال بودلى : « وكانت طيبة خيرة »

وذكر هيكل : « ولم تكن ذات جمال ، وانما عرفت بطيبتها واحسانها حتى لقبت بأم المساكين »

والراجح أنها ماتت فى الثلاثين من عمرها كما ذكر « الواقدى » ونقل « ابن حجر » فى الاصابة ، وهى سن رآها المحدثون : « متوسطة قد تخطت الشباب »

ويفوتهم أن حكمهم عليها بتخطى الشباب وهى بعد فى الثلاثين أو ما حولها ، يكفى ردا على ما أطالوا فى الحديث فيه من طفولة « عائشة »

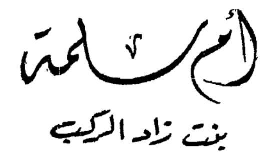
***

ولو حاولنا أن نسأل كتب السيرة والتراجم مزيدا من أخبار « زينب » فى بيت الرسول ، لما ظفرنا وراء ذلك بشىء ذى بال ، فحسبنا أن تتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبى وأمومة المؤمنين ، منصرفة عن شواغل الحريم ، بما كان يشغلها من أمر المساكين ، قانعة بما ينالها من تقدير الرسول ، لايرهقها طمع ولا تنهكها غيرة ..

ولم تطل (١) المقام ، بل مرت كطيف رقيق عابر ، ثم رقدت فى سلام كما عاشت فى سلام ، وخلدت فى تاريخ الاسلام أما للمؤمنين ، وفى تاريخ الانسانية أما للمساكين ...

---

(١) السمط الثمين ١١٦



.. لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم «أم سلمة» حزنت حزنًا شديدًا لما ذُكر لنا من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتها، فرأيت والله أضعاف ما وُصِفَت به»

عائشة بنت أبي بكر

الإصابة ٨/٢٤١

خلا بيت « أم المساكين » فى دور النبى ، وقتا غير قصير ، حتى جاءت « أم سلمة » فشغلته

قالت ، فيما روى ابن سعد فى (طبقاته) :

« ... فتزوجنى ، فنقلنى الى بيت زينب بنت خزيمة ، أم المساكين »

واسمها : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم : القرشية المخزومية (١)

ودخل بها الرسول فى شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة ، كما نقل الطبرى (٢)

وأحدث دخولها ضجة فى دور النبى ، وأشاع قلقا ــ وأى قلق ! ــ فى الزوجتين الشابتين ، « عائشة وحفصة ، ابنتى أبى بكر وعمر »

ولم لا ، وهذه زوجة جديدة عزيزة ، عريقة المنبت ، ذات جمال واباء وفطنة ، تزفها الى بيت النبى أمجاد طوال عراض

أبوها : أحد أبنـاء قريش المعدودين ، وقد ذهب دونهم على الدهر بلقب « زاد الركب » أن كان اذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد ، بل يكفى رفقته من الزاد

وأمها (٣) : عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية ، من بنى فراس الأمجاد

وزوجها الذى مات عنها قبل أن يتزوجها الرسول : أبو سلمة ، عبد الله ابن عبد الاسد بن المغيرة الصحابى الفارس ، ابن عمة الرسول : برة بنت

---

(١) ابن هشام : السيرة ١\٣٤٥ ، ٤/٢٩٤ــ وتاريخ الطبرى ٣/١٧٧
(٢) تاريخ الطبرى : ٣\٤٢
(٣) السمط الثمين : ٨٦

عبد المطلب بن هاشم ، وأخوه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ، مولاة أبى لهب (١)

وكان لأبى سلمة ، ولزوجه هند ، الى جانب هذا النسب العريق ، ماض مجيد فى الاسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا معا الى الحبشة حيث ولدت هند هناك ابنهما « سلمة » (٢)

ثم قدما مكة ، حتى ضاقت بالمسلمين وألحت فى اضطهادهم ، فأجمع « أبو سلمة » أمره على أن يهاجر ثانية فيخرج بأهله الى يثرب ، فكانت قصة خروجهما مأساة لا تزال ــ على بعد العهد بها وتطاول الآماد ــ عنيفة الاثارة أليمة الوقع

ولندع « أم سلمة » تروى المأساة فتقول : (٣)

« ... لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحل بعيرا له وحملنى وحمل معى ابنى سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بنى المغيرة قاموا اليه فقالوا :

ــ هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

« ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا الى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجى :

ــ والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا

« فتجاذبوا ابنى « سلمة » حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم

« ومضى زوجى أبوسلمة حتى لحق بالمدينة . وفرّق بينى وبين زوجى وابنى ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريبا منها

---

(١) السيرة : ٣\١٠٢ ، والاستيعاب والاصابة ٨

(٢) السيرة ١/٣٤٥

(٣) ابن هشام : السيرة ٢/١١٢ ، والسمط الثمين ٨٧

« حتى مر بى رجل من بنى عمى ، أحـد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى فقال لبنى المغيرة :

ــ ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها !

« وما زال بهم حتى قالوا :

ــ الحقى بزوجك ان شئت

« وردَّ علىَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى ، فرحلت بعيرى ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينـة ، وما معى أحد من خلق الله ..

« حتى اذا كنت بالتنعيم ــ على فرسخين من مكة ــ لقيت (١) عثمان ابن طلحة فقال :

ــ أين يا بنت أبى أمية ؟

قلت :

ــ أريد زوجى بالمدينة

فقال :

ــ هل معك أحد ؟

فقلت :

ــ لا والله ، الا الله وابنى هذا

فقال :

ــ والله ما لك من مَتْرَك

« وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه.. اذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى الى شجرة

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وانماأسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد

فلما فتحت مكة ، دفع الرسول مفاتيح الكعبة الى عثمان بن طلحة والى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وقتل عثمان شـهيدا بأجنادين فى خـلافة عمر ــ الروض الأنف : ٢٨٥/١

فاضطجع تحتهـا ، فاذا دنا الرواح قام الى بعيرى فقـدمه ورحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى

« فاذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة ، فلما نظر الى قرية بنى عمر بن عوف بقباء ـ وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجره ـ قال :

ـ ان زوجك فى هذه القرية ، فادخليها على بركة الله

« ثم انصرف راجعا الى مكة » (١)

فكانت أم سلمة ـ بين المهاجرات ـ أول ظعينة دخلت المدينـة ، كما كانت أول مسلمة هاجرت الى الحبشة (٢)

وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، أول من هاجر الى يثرب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)

***

وفى المدينة ، ولدت هند لأبى سلمة : عمر ودرة وزينب (٤)

وعكفت على تربية صغارها ، وتفرغ زوجها لمعركة الاسلام

وحين خرج الرسول فى غزوة العشيرة ـ فى جمادى الأولى من السـنة الثانية للهجرة ، وهى الغزوة التى وادع فيها بنى مدلج وحلفـاءهم بنى ضمرة ـ اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة (٥)

وشهد مع الرسول غزوة « بدر » الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تم بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين ، فى أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد

وحين تنكر المتنكرون لمحمد والاسـلام عقب موقعة « أحـد » وبلغ الرسول بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بنى أسد يدعون الى مهاجمـة

---

(١) السيرة ١١٢/٢ والاصابة : ٢٤٠/٨
(٢) الاصابة : ٢٤٠/٨
(٣) السيرة : ١١٢/٢
(٤) الطبرى ١٧٧/٣ ـ وفى رواية ، انها ولدت له عمر وزينب
(٥) السيرة : ٢٤٨/٢ ، وتاريخ الطبرى ، حوادث السنة الثانية للهجرة

محمد فى داره بالمدينة ، دعا الرسول اليه « أبا سلمة » فعقد له لواء سرية عدتها مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص

ونفذ الفارس « أبو سلمة » ما أمر به الرسول من أخذ العدو على غزة ، فأحاط بهم فى عماية الصبح على غير أهبة منهم لنضال ، وقاد معركة ظافرة ، ثم رجع وصحبه الى المدينة غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت « أحد » من هيبة المسلمين

وكان « أبو سلمة » يقود معركته وفيه جرح خطير أصابه يوم « أحد » ثم التأم التئاما سطحيا ، فلما أجهده النضال مع بنى أسد ، عاد الجرح فنغر وظل به حتى قضى عليه

وحضره النبى وهو على فراش موته ، وبقى الى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبر عليه تسع تكبيرات

قيل له : يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟

فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبَّرتُ على أبى سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك (١)

وترك من بعده ، « أم سلمة » ، « هند بنت زاد الركب » أولى المهاجرات الى الحبشة ثم الى المدينة

***

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة « أم سلمة » فتقدم اليها منهم « أبو بكر الصديق » خاطبا ، فرفضت فى رفق

وتلاه « عمر بن الخطاب » فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه

ومن بعدهما ، بعث اليها النبى يخطبها ، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم ، لكنها أشفقت — وقد جاوزت سن الشباب ، ومعها عيال لها صغار — ألا تملأ مكانها فى بيت النبى ، الى جانب عائشة وحفصة

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٧/٢ والاصابة : ٢٤٠/٨

وأرسلت الى الرسول تعتذر ، وتقول : انها غيرى ، مسنة ، ذات عيال فأجاب محمد عليه الصلاة والسلام :

ــ أما انك مسنة ، فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فالى الله ورسوله (١)

***

وتم الزواج ..

وتكلفت « عائشة وحفصة » ما أطاقتا من شجاعة ، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشىء من المجاملة ، لكن « عائشة » لم تطق صبرا على هذا التكلف ، فكشفت لحفصة عما تطوى من ألم وغيرة ، وفى ذلك تقول عائشة :

« لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة ، حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها . فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وصفت به ، فذكرت ذلك لحفصة فقالت :

« ما هى كما يقال .. » ــ وذكرت كبر سنها ..

« فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة ، ولكنى كنت غيرى » (٢)

وما من شك فى أن « أم سلمة » قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ، الزوجة المفضلة ، ولعلها ــ لذلك ــ قد رضيت أن تبعث بطفلتها « زينب » الى حاضنة ، كى تفرغ لزوجها الرسول

وكانت قد جاءت بها صغيرة الى بيت النبى ، فبقيت معها حتى جاء عمار ابن ياسر ــ أخو هند من الرضاعة ــ فانتزعها من حجرها قائلا لها :

« دعيها فقد آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣)

وفى (الاصابة) أن رسول الله كان يأتى أم سلمة فيقول : « أين زناب ؟ »

---

(١) السمط الثمين : ٨٩
(٢) الاصابة : ٢٤١/٨
(٣) السيرة : ١٧١/٢ والسمط الثمين ٩٠

ـ تدليلا للصغيرة ـ حتى جاء عمار بن ياسر فقال : « هذه تمنع رسول الله حاجته (١)

***

وبدا واضحا أن « أم سلمة » تعرف لنفسها قدرها ، وتأبى على « عائشة » أو سواها المساس بكرامتها ، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب

وكذلك أبت على « عمر » أن يتكلم فى مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن الرسول ، وقالت له منكرة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلتَ فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ »

وما قالت كلمتها هذه الا وهى مدلة بمكانها عند زوجها الرسول وفى بيته ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعدها من أهله : حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك ، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فضمهما اليه ، ثم قال : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد . فبكت « أم سلمة » فنظر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألها فى حنو : ما يبكيك ؟.. أجابت يا رسول الله ، خصصتَهم ، وتركتنى وابنتى . قال : انك وابنتك من أهل البيت (٢)

وبلغ من اعزازه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابنها « سلمة » أن اختاره زوجا لابنة عمه « حمزة : سيد الشهداء » (٣)

***

وكان الوحى ينزل على رسول الله فى بيت « عائشة » فتباهى بذلك ضرائرها ، حتى جاءت « أم سلمة بنت زاد الركب » فأوحى الى الرسول وهو لديها قوله تعالى :

---

(١) الاصابة : الجزء الثامن ص ٢٤٠

(٢) السمط الثمين ٢

(٣) تاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ ط مصر ـ والسمط الثمين ١٦

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم » (١)

وفى سبب نزول الآية يروون حادثة لا بأس من ذكرها هنا : حدثوا (٢) أن الرسول حين غزا بنى قريظة فى السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله فى قلوبهم الرعب فبعثوا الى رسول الله أن يرسل اليهم صاحبه « أبا لبابة بن عبد المنذر » ليستشيروه فى أمرهم . فأرسله الرسول اليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرق لهم

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

فأجاب : « نعم ، انه الذبح » . وأشار بيده الى حلقه

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه الى عمود من عمد المسجد وقال :

« لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت »

وبلغ الرسول خبره ـــ وكان قد استبطأه ـــ فقال عليه الصلاة والسلام :

« أما انه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما اذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه »

روى ابن هشام : (٣)

« .. أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ..

« حتى نزلت توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من السحر وهو فى بيت أم سلمة ، فقالت ، وقد سمعته يضحك :

ـــ ممَّ تضحك يا رسول الله أضحك الله سِنَّك ؟

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٠٣
(٢) تاريخ الطبرى : حوادث السنة الخامسة للهجرة (٣/٥٤ ط مصر)
(٣) السيرة : ٣/٢٤

قال :

ـــ تيب على أبى لبابة

قالت :

ـــ أفلا أبشره يا رسول الله ؟

فقال :

ـــ بلى ، ان شئت

فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين ، فقالت :

ـــ يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك

« فثار الناس ليطلقوه ، فأبى وقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده

« فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه »

***

وفى العام السادس للهجرة ، صحبت « أم سلمة » زوجها الرسول فى رحلته الى « مكة » ، وهى الرحلة التى صدت فيها قريش « محمدا » وأتباعه عن دخول البلد الحرام ، وتم عهد الحديبية الذى عده المؤرخون نصرا مبينا

وكان « لأم سلمة » فى « هدنة الحديبية » (١) دور جليل لم ينسه لها تاريخ الاسلام

ذلك أن أصحاب الرسول تذمروا حين بلغهم نص العهد ، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون . ويكفى أن نذكر من مظاهر ذلك التذمر ، أن عمر بن الخطاب ـــ حين تم الاتفاق على شروط الصلح ولم يبق الا تسجيله ـــ وثب فأتى أبا بكر يسأله :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٨٠ ـــ و السمط الثمين : ٦٥

« أليس برسول الله ؟

« أو لسنا بالمسلمين ؟

« أو ليسوا بالمشركين ؟

فيجيب أبو بكر فى كل مرة : بلى

قال عمر :

« فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ »

فحذره أبو بكر ثم قال :

« انى أشهد أنه رسول الله »

قال عمر :

« وأنا أشهد أنه رسول الله »

ثم مضى « عمر » فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسأله مثل ما سأل أبا بكر ، حتى اذا بلغ قوله :

« فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ »

أجابه الرسول :

« أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » (١)

واستفحل الأمر الى حد منذر بخطر ، حتى أن الرسول أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا ، فما قام منهم رجل ، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من يستجيب . فدخل على زوجته « أم سلمة » فذكر لها ما لقى من الناس فقالت :

« يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟.. اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك »

وأصغى الرسول لمشورتها ، فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر وحلق ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد

(١) ابن هشام : السيرة ٣/١٣١ — وتاريخ الطبرى ٣/٧٩

بعضهم يقتل بعضا غما وندما (١)

وتاب المسلمون الى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم فأدركوا أى صلح خطير عقد الرسـول ، وانه ما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ؛ فلقد دخل فى دين محمـد بعد الحديبية ، مثل من كان قبـل ذلك وأكثر

***

وصحبت « أم سلمة » الرسول كذلك فى خروجه لفتح مكة ، ثم فى حصاره الطائف (٢) وغزو هوازن وثقيف ، حتى اذا عادت الى المدينـة فى السنة الثامنة للهجرة ، أثارت نساء النبى غيرتها على « مارية » وما زلن بها الى أن استجابت لمنافستها الأولى « عائشة » ورضيت أن تظاهرها فى الكيد « لمارية »

ووضعت « مارية » غلامها ابراهيم ـ رضى الله عنه ـ فى السنة الثامنة للهجرة ، ورأت أم سلمة ، وعائشة ، وحفصة ، وزينب ، وبقية النساء ، مبلغ فرح الرسول به ، فكانت المغاضبة التى حملت الرسول على اعتزالهن شهرا ..

وساد الهدوء بيت النبى بعد تلك العاصفة ، حتى اذا مرض الرسـول أذنت له « أم سلمة » وبقية زوجاته عليه الصلاة والسلام ، أن يمرض حيث أحب ، فى بيت غريمتها عائشة

---

(١) تاريخ الطبرى : حوادث السنة السادسة للهجرة (٨٠/٣ ط مصر)
(٢) المرجع نفسه : حوادث السنة الثامنة للهجرة (١٣٣/٣ ط مصر)

الله من وراء هذه الأمة

ثم حاولت من بعده — صلى الله عليه وسلم — أن تتجنب الخوض فى الحياة العامة ، الى أن كانت الفتنة الكبرى فاندفعت بالرغم منها تؤازر ابن عم الرسول ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبا الحسن والحسين

وودت لو تخرج فتنصره ، لكنها كرهت أن تبتلى وهى أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج ، فجاءت « عليا » كرم الله وجهه وقدمت اليه ابنها عمر قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله منى ، لخرجت معك . وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز علىّ من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك » (١)

ثم مضت الى « عائشة » فقالت لها فى عنف وانكار :

« أى خروج هذا الذى تخرجين؟.. الله من وراء هذه الأمة !.. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه علىّ »

***

لكن « عائشة » مضت فى طريقها لا تلوى على شىء ..

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتحنت ، كما امتحن الاسلام كله ، بمأساة « كربلاء » ومذبحة أهل بيت الرسول هناك ، وتقول رواية أنها ماتت فى آخر سنة احدى وستين بعد ما جاءها نعى الامام الحسين بن على (٢)

وقيل بل امتد بها الأجل عاما آخر ، وماتت حين سمعت بالجيش الذى جهزه « يزيد بن معاوية » للفتك بآل على فى « المدينة » سنة ثلاث وستين

وشيع المسلمون بنت زاد الركب ، آخر من مات من نساء النبى ، وصلى عليها « أبو هريرة » الصحابى الجليل ، ودفنت بالبقيع ، ولم يبق بعدها من أمهات المؤمنين غير ذكرى وتاريخ !

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر — والاصابة ٢٤٤١/٨
(٢) الاصابة : ٢٤١/٨

الفصل الثامن

زينب بنت جحش

الشريفة الحسناء

«يا رسول الله، ما أنا كإحدى نسائك
ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها
أو أخوها أو أهلها غيري ... زوجنيك
الله من السماء»

زينب بنت جحش

شريفة ومولى

حين دخلت « أم سلمة » بيت النبى ، وتحدثت «عائشة» الى «حفصة» عما تجد من لواذع الغيرة ووطأة الألم لما رأت من جمال العروس ، لفتتها « حفصة » الى أنها على جمالها كبيرة السن ، ثم أوصتها أن تستبقى غيرتها لمن هى أولى

وكأنما كانت « حفصة » تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج الرسول من « أم سلمة » بضعة أشهر ، حتى دخلت بيتَ الرسول من هى أولى بغيرة عائشة ...

تلك هى « زينب بنت جحش » الشابة الهاشمية الحسناء ، حفيدة عبد المطلب ، وابنة عمة محمد صلى الله عليه وسلم

وصفتها الرواية بأنها « كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش (١) » وكانت معتزة بهذا الجمال ، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع ، حتى لقد سُمِعت تقول : « أنا سيدة أبناء عبد شمس (٢) »

***

ولو كانت « زينب » قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للرسول فحسب ، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من فى بيت النبى من زوجات ، فكيف وقد كان زواجها من الرسول أمرا سماويا ، ووحيا من عند الله جل فى علاه ؟

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها مدينة الرسول مثل « زينب بنت جحش » ، ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من ظروف خاصة ، وما أثاره من شبهة وخلاف ، حسمتهما السماء بوحى منزل.

---

(١) المحب الطبرى : السمط الثمين ص ١٠٧
(٢) المصدر نفسه : ص ١١٢

ولبيان هذا لابد من استطراد يسير ، نرجع به الى ما قبل المبعث ، حين رجع « حكيم بن خزام بن خويلد » من رحلة له بالشــام ، ومعه رقيق ، فيهم غلام فى الثامنة يدعى زيدا

وما كان « زيد » عبــدا ، وانما هو « زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب » من بنى زيد اللات ، خرجت به أمه « سعدى بنت ثعلبة » لتزيره أهلها بنى معن بن طيىء ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فبــاعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان حكيم بن خزام هو الذى اشتراه (١)

وجاءت « خديجة » ــ وهى يومئذ زوجة محمد بن عبد الله ــ تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان ، فأخذت « زيدا » وعادت به الى بيتها . ورآه سيدنا « محمد » فاستوهبه منها فوهبتــه له راضية (٢)

وكان أبوه « حارثة » قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه فى مكة ، فانطلق مع أخيه « كعب » حتى وقفا على محمــد بن عبد الله فقالا له :

« يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، تفكون العانى وتطعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا ، فتحسن الينا فى فدائه ؟ »

سأل الرسول :

« أو غير ذلك ؟ »

قالا :

« ما هو ؟ »

أجاب :

« أدعوه وأخيره ، فان اختاركما فذاك ، وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا »

---

(١) انظر تفصيل الخبر فى السيرة : ٢٦٤/٢

(٢) هذه رواية ابن هشام فى السيرة : ٢٦٤/٢ ــ وفى السمط الثمين رواية أخرى أن محمدا صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا فى الجاهلية ، فى سوق عكاظ ، ثم أعتقه وتبناه ــ ص ١٠٨

هتفا معا :

« قد زدتَ على النصفة »

ودعى زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيره الرسول : ان شاء ذهب معهما وان شاء أقام معه

فاختار سيده !

وتوسل اليه أبوه بصوت متهدج :

« يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟ »

فتماسك « زيد » ليجيب :

« انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا »

فعند ذلك أخذ سيده بيده ، وقام به الى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا

ودعى الغلام « زيد بن محمد »

وكان أول من أسلم ، بعد « على بن أبى طالب (١) »

وبلغ « زيد » سن الزواج ، فاختار له الرسول زينة الهاشميات : « زينب » بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب

وكرهت زينب ، وكره أخوها « عبد الله بن جحش » ، أن تزف الشريفة القرشية الى مولى من الموالى

وفزعا الى الرسول يسألانه ألا يلحق بهما مثل ذلك العار ، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موال وان أعتقوا .. وقالت زينب فيما قالت يومئذ : « لا أتزوجه أبدا وأنا سيدة أبناء عبد شمس (٢) »

فحدثهما الرسول عن مكان « زيد » منه ومن الاسلام ، وعن أصله العربى النقى ، لكنهما — على حبهما للرسول وحرصهما على طاعته — لم يذعنا حتى نزل فيهما قوله تعالى :

---

(١) السيرة : ٢٦٤/٢ — وتاريخ الطبرى ٢١٥/٢
(٢) السمط الثمين : ١١٢

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (١)

وتزوجت « زينب » زيدا ...

وتم للرسول ما أراد من تحطيم فوارق الطبقات ، واعلاء كلمة الاسلام

***

لكن حياة الزوجين لم تصف لهما ، فما نسيت « زينب » قط انها الشريفة لم يجر عليها رق ، ولا أساغت لحظة أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيت آلها رقيقا !

وقاسى « زيد » من صدها وابائها وترفعها ما استنفد صبره ، فشكا الى الرسول غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، والرسول يطلب اليه مزيدا من الصبر والاحتمال ، ويأمره أن « أمسك عليك زوجك واتق الله .. » (٢)

ثم حدث ما يرويه « الطبرى » بسند مرفوع الى محمد بن يحيى بن حبان ، أن الرسول افتقد زيدا فجاء منزله يطلبه ، فهرعت « زينب » تستقبله ، وقد أعجلتها اللهفة عن استكمال ثيابها للقاء الرسول ، فقالت :

« ليس هو هاهنا يا رسول الله ، فادخل بأبى أنت وأمى » (٣)

وفى رواية أخرى ، نقلها الطبرى كذلك « أن الرسول جاء يطلب زيدا وعلى باب « زينب » ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهى فى حجرتها حاسرة ، فوقع اعجابها فى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم » (٤)

ودعته الى الدخول فأبى ، وولى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهو يهمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب »

---

(١) سورة الاحزاب : آية ٣٦

(٢) الآية : « واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه : أمسك عليك زوجك .. » سورة الاحزاب آية ٣٧

(٣) تاريخ الطبرى : ٤٢/٣ وانظر كذلك السمط الثمين ص ١٠٧

(٤) تاريخ الطبرى : ٤٣/٣ ط مصر

وأقامت « زينب » فى مكانها تفكر فيما سمعت من قول ابن خالها ، حتى جاء « زيد » فكان أول ما لقيته به ، أن الرسول أتى منزله !

سألها زيد :

« ألا قلت له : ادخل .. »

فأجابت :

« بلى ، قد عرضت عليه ذلك فأبى »

واستطرد « زيد » مستفسرا :

« فسمعتِه يقول شيئا ؟ »

قالت :

« سمعته يقول حين ولى : سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » (١)

فأطرق « زيد » برهة ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا رسول الله ، بلغنى أنك جئت منزلى ، فهلا دخلت بأبى أنت وأمى ؟ »

ثم أضاف متسائلا : (٢)

« فأفارقها ؟ »

فقال الرسول :

« مالك ؟ أرابك منها شيء ؟ »

فأجاب زيد :

« لا والله يا رسول الله ، ما رابنى منها شيء ولا رأيت الا خيرا ، ولكنها تتعظم علىّ لشرفها ، وان فيها كبرا ، تؤذينى بلسانها » (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤٢/٣ حوادث السنة الخامسة من الهجرة
(٢) تاريخ الطبرى : ٤٢/٣
(٣) السمط الثمين : ١٠٧

قال الرسول :

« أمسك عليك زوجك »

وأذعن زيد ، وعاد ليجرب الاحتمال من جـديد ، ويكابد مزيدا من المر والشقاء

لكن زينب هجرته ، فما استطاع اليها سبيلا بعد ذلك اليوم [1] حتى نفد احتماله ففارقها وكان الطلاق [2]

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٤٣

(٢) السمط الثمين ١٠٨ وتاريخ الطبرى٣/٤٣

زواج بأمر السماء

وأحس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عطفا غلابا على الشابة التى أكرهت على الزواج ممن لا ترضى اذعانا لأمر الله ورسوله ، وود لو يستطيع أن يجبر خاطرها المكسور ، وحدثته نفسه أن يتزوجها ، ولكن كيف ؟ أو لم يعلن فى الملأ من قريش أن زيدا ابنه ؟.. فماذا يقول الناس اذا تزوج ممن كانت زوجة ابنه ؟.. وهل تراهم يصغون له اذا ذكرهم بأن المتبنى غير الابن ، وقد جرت تقاليدهم على أن يلصقوا المتبنى بأبيه ، ويجعلوا له حقوق الابن وحرمة النسب ؟

وآثر الرسول أن يكتم رغبته ، وأن يقاوم عاطفته نحو بنت عمته التى انتزعها زهرة غضة من أشرف بيت فى قريش ، فزفها بالرغم منها الى زوج ملصق ، يدعى لغير أبيه !

فبينا هو صلى الله عليه وسلم يحدث مع عائشة ، اذ أخذته غشية الوحى ، ثم سرى عنه وهو يبتسم ويقول :

ـ من يذهب الى زينب يبشرها بأن الله زوجنيها ؟ (١)

وتلا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما أنزل اليه من وحى السماء :

« واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا» (٢)

قالت « عائشة » : فأخذنى ما قرُب وما بعُد ، لما يبلغنا من جمالها ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤٣/٣

(٢) سورة الاحزاب : الآية ٣٧

وأخرى هى أعظم الأمور وأشرفها ، ما صنع الله لها : زوجها .. فقلت .. تفخر علينا بهذا .. (١)

***

تلك هى قصة زينب ، نقلناها من تاريخ الطبرى ؛ وكتب السيرة والصحابة ، لم نكد نتصرف فيها بكلمة . ولست أدرى ما الذى أنكره « الدكتور هيكل » منها حتى اندفع يردها الى مفتريات المستشرقين والمبشرين « الذين أضفوا عليها من أستار الخيال ، حتى جعلوها قصة غرام ووله » ، ثم يقول : « ويكفى لهدم كل القصة من أساسها : أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه ، هى ابنة عمة رسول الله عليه السلام ، وانها ربيت بعينه وعنايته .. وانه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة الى الصبا الى الشباب ، وانه هو الذى خطبها على زيد مولاه . اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص ، من أنه مر ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب . أو أنه لما فتح باب « زيد » عبث الهواء بالستار على غرفة « زينب » فألفاها فى قميصها وكأنها « مدام ريكاميه » فانقلب فجأة ونسى سودة ، وعائشة ، وحفصة ، وزينب بنت مخزوم ، وأم سلمة ، ونسى كذلك ذكر خديجة » (٢)

وعند الدكتور هيكل ، أن زواج الرسول من زينب لم يدفع اليه ميل ولا عاطفة ، وانما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء ، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة ، فلم يرض له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ؛ ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه

« أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون

---

(١) العبارة بنصها منقولة من تاريخ الطبرى ٤٣/٣
(٢) حياة محمد : ٢٩١

« ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة القديمة للاسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية ، هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون ، وتجعلهم فى أمر زواج النبى ، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش ، يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه مما دس عليه ونسب اليه » (١)

وما أنبله من رد ، لولا أن قصة اعجاب الرسول بزينب ، وحكاية الستر من الشعر الذى رفعته الريح ، وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول : سبحان الله مقلب القلوب ، قد كتبت قبل أن تسمع الدنيا بالحروب الصليبية ، بأقلام نفر من مؤرخى الاسلام ورواة السيرة ، لا يرقى اليهم اتهام بعداء النبى والدس على الاسلام

فمن الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين أمثال موير ، ومرجليوث ، وارفنج ، وسبرنجر ، لتقرأ القصة على مهل فى (٢) « تاريخ الطبرى » وفى « الاصابة » وفى كتب « التفسير » وفى « السمط الثمين »

***

ثم فلننظر :

هل فيها ما يريب ؟

ان آية العظمة فى شخصية نبينا ، انه بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وما نعرف فى تاريخ الأبطال — ولا أقول الأنبياء — من أصر على اعلان بشريته وتقريرها اصرار محمد بن عبد الله ، ولا عرفت الانسانية كتابا سماويا يجعل من بشرية المبعوث به ، آية تتلى وقرآنا يتعبد به المؤمنون ، كما فعل كتاب الاسلام المعجز

ولن يكون أحدنا مؤمنا وهو ينكر هذه البشرية وينزه عنها رسولا

---

(١) حياة محمد : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

(٢) راجعها بالتفصيل فى تاريخ الطبرى : ٤٢/٣ ، ٤٣ وفى النهاية لابن الاثير : حوادث السنة الخامسة للهجرة ، وفى السمط الثمين ١٠٧ — وفى الاصابة جـ ٨

أوحى اليه : « قل انما أنا بشر مثلكم (١) « قل سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ » فقـالها ، ثم اعتز بأنه « ابن امرأة من قريش تأكل القديد »

أفينكر على بشر رسول ، أن يرى مثل زينب فيعجب بها ؟

وماذا يطلب من مثله ــ فى سمو خلقـه وعفة ضـميره ــ أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته ، وهو يسبح باسم الله العظيم ، مقلب القلوب ؟

وأى ضـبط للنفس ينتظر من بشر رسـول ، أكثر من أن يجيئه زيد فيستأذنه من جديد فى طلاقها ، فيأبى عليه الا أن يمسكها ويتقى الله ! ؟

ان القصة ــ وقد نقلها الينا رواة غير متهمين ــ لترتفع برسـولنا عليه السـلام الى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبـط للنفس واعتقـال للهوى ، وانها لجـديرة بأن تعد مفخرة لمحمد والاسـلام ، فمـا ادعى نبينا قط أن قلبه بيده يصرفه حيث شـاء ، ولا زعم مرة ، أنه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم ، وقد كان يقول فى ايثاره عائشـة على غيرها من زوجاته اللاتى أمره ربه بالعدل بينهن :

« اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »

فكيف نخاف عليه لوما أن مال قلبه الى « زينب » ، ثم أبى ــ مع هذا الميل ــ الا أن يأمر زوجها بامسـاكها ، على ما يعرف من شقائهما بهذا الامساك ؟

أما كونه رآها طفلة وصبيـة وشابة ، وزفها بيده الى زيد ، فسبحان مقلب القلوب

وأما ان المسألة خلت خلوا تاما من أى ميل أو هوى ، وان « قصـة الحب » من مفتريات المبشرين ، وان الله لم يعاتب الرسول الا لأنه أشفق من مواجهة العرب بنقض عادتهم فى التسوية بين البنوة والتبنى ، أما هذا كله ، فيكفى للرد عليه أن ننقل هنا تفسير الزمخشرى للآية ، منذ أكثر من

(١) من آية ١١١ سورة الكهف ــ وانظر معها الآيات : ٦ فصلت ، الاسراء ٩٣ ، القمر ٢٤ ، الانبياء ٣٤

ثمانيــة قرون ونصف قرن ، بأن رسول الله « أبصر زينب بعد ما أنكحها زيدا فوقعت فى نفسه ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب . وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادتها لاختطبها

« فان قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها ، وقيل : مودة مفارقة زيد اياها ...

« فان قلت : كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به ، وما له لم يعاتبــه فى نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع على زينب وتتبعها ، ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة ؟ قلت : كم من شىء يحتفظ منه الانســان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق ، لا مقــال فيه ولا عيب عند الله ... لأن طموح قلب الانســان الى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع ، لأنه ليس بفعــل الانسان ، ولا وجوده باختياره » (١)

هل لى أن أقول بعد هذا ، ان « الدكتور هيكل » أخطأ من حيث أراد الدفاع عن الرسول ؟.. ذلك أنه بانكاره ميل الرسول الى زينب ، ورفضه أن يكون صلى الله عليه وسلم تعلق بها ، قد ألقى على المسألة ظلالا من الريبة ، توهم أن هذا التعلق خطأ لا يجوز على الرسول ومنقصة يجب أن نتزهه عنها . وما فى الأمر شىء من ذلك قط ، انما هى البشرية تتعرض لما لا تملك دفعه من أهواء ، فتتسامى وتترفع فى نبل وعفة ، ثم تأبى الا المضى فى الامتناع عما أحل الله دفعا لمقالة النــاس ، ويأبى الله على رســوله ألا يقدم على زواج كهذا أباحه الشرع ، وقضت به مصلحة عامة هى « ألا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » (٢) ومصلحة أخرى خاصة « هى أن تأمن زينب ــ بنت عمة الرسول ــ الأيمة

---

(١) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب : حـ٣/٢٣٧ ط التجارية
(٢) سورة الاحزاب ، من آية ٣٧

والضـــيعة ؛ وتنال الشرف بأن تغدو من أمهات المؤمنين . ومن هنا كان عتاب الله لرســوله ، حين كتم الأمر وبالغ فى كتمه ؛ والله لايرضى له الا اتحاد الضمير والظاهر، والثبات فى مواطن الحق ؛ حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وان كان مرا » (١)



(١) تفسير الكشاف ٢٣٨/٣

حجاب

طار البشير الى « زينب » بالخبر السعيد ، قيل حملته اليها سلمى خادم الرسول (١) وقيل بل مضى به اليها « زيد » نفسه ، (٢) فتركت ما بيدها وقامت تصلى لربها شاكرة

وكانت وليمة العرس حافلة : ذبح الرسول شاة ، وأمر صلى الله عليه وسلم خادمه « أنس بن مالك » أن يدعو النـاس الى الوليمة ، فترادفوا أفواجـا ، يأكل فوج فيـخرج ، ثم يدخـل فوج . الى أن قال أنس : يا رسـول الله ، دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه . فقال صـلى الله عليه وسلم : ارفعوا طعامكم (٣)

وللمرة الثانيـة ، تدخلت السماء فى الحياة الزوجية للرسول صلى الله عليه وسلم بسبب « زينب »

ذلك أن المدعوين قد طابت لهم الجلسة بعد أن فرغوا من الطعـام ، فأقاموا يتحدثون حتى ولّى النهار وانصرم ، وحين طـال مكثهم ، بدا الرسول كأنه (٤) يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك منهم قام يزور نساءه ريثما ينفض المجلس ، فانصرف القوم اثر قيامه ، الا ثلاثة نفر ظلوا حيث هم ، الى أن طاف الرسول — كعادته — بنسائه جميعا وتلقى تهنئتهن بالعروس الجديدة ، وآن له أن يخلو الى « زينب » فاذا الثـلاثة جلوس ما يزالون يسمرون . ومنعه حياؤه الشديد أن يصرفهم من بيت العروس التى كانت تجلس هنالك مولية ظهرها الى الحائط (٥) ، فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة ، وبقى خادمه « أنس » منتظرا مع الضيوف حتى انصرفوا ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٢٧/٣
(٢) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب — والاستيعاب ١٨٥١/٤٠
(٣) تفسير الكشاف ٢٤٤/٣
(٤) السمط الثمين ١٠٧
(٥) السمط الثمين ص ١١٠ وتفسير الكشاف ٢٤٤/٣

فأسرع الى الرسول ينبئه بذلك ، فجاء صلى الله عليه وسلم واتجه نحو حجرة زينب ، حتى اذا بلغ عتبتها أرخى الستر بينه وبين أنس ، وتلا ما أنزل عليه حينئذ من وحى السماء : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما » [١]

ومن تلك اللحظة ، فرض الحجاب على نساء النبى ، وعلى المؤمنات جميعا ، رمز تصون وعزة ، وسمة كرامة وترفع عن الابتذال ..

---

(١) آية ٥٣ سورة الاحزاب

أكرمهن وليا وسفيرا

ودخل محمد صلى الله عليه وسلم بتلك التي زوجته اياها السماء

وباتت « عائشة » ليلتها فريسة الغيرة ، قد أخذها — فيما قالت — ما قرُب وما بعد ، لما تعرف من جمال زينب ، ولما هي حرية أن تفخر به من صنع الله لها

وكذلك غارت نساء النبي رضي الله عنهن ، وضقن جميعا بهذه العروس الجديدة : تعتز بجمال وشباب وشرف ، وبأن الله هو الذي زوجها

ولم تكذب زينب ظنهن ، فانها ما لبثت أن واجهتهن — وقد أدركت ما يطوين لها — مباهية : « أنا أكرمكن وليا ، وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات ! » (١)

واذا كانت « أم سلمة » قد سرها أن ترى أثر دخولها على عائشة ، الزوجة المفضلة ، فلا ريب أن زينب قد أرضاها أن تجيء فتتقدم « أم سلمة » غريمة لعائشة !

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب ، كما لم تكتمها من أم سلمة ، بل اعترفت بأنهما : « كانتا أحب نسائه اليه — فيما أحسب — بعدي »

ثم تؤثر زينب وحدها بخصومتها فتقول : « لم تكن واحدة من نساء النبي تناصيني غير زينب » (٢) أو تقول : لم يكن أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تساميني في حسن المنزلة عنده ، غير زينب بنت جحش (٣)

أي تنازعني وتباريني ، من قولك : ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته

وقد مر بنا ما كان من ضيق «عائشة» بميل الرسول الى زينب « واطالته

---

(١) طبقات ابن سعد : ٧٣/٨

(٢) ابن هشام : السيرة ٣١١/٣

(٣) الاستيعاب : ١٨٥٠/٤

المكث لديها » ثم تآمرها مع حفصة وسودة ، أيتهن دخل عليها الرسول اثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « انى أجد ريح مغافير » (١)

وكان يحدث أحيانا أن تحتدم بينهما المنافسة فى حضرة الرسول ، فيدعهما وشأنهما لعل فى هذا راحة لهما وتنفيسا عن مشاعرهما . وقد استطاعت « عائشة » مرة أن تغلب « زينب » فما زاد الرسول على أن تبسم وقال : (٢)

« انها بنت أبى بكر »

وحدث مرة أخرى ، أن أفلت لسان « عائشة » بكلمة غضب لها الرسول . فقد تلقى هدية وهو فى بيتها ، فأرسل الى كل زوجة نصيبا منها . لكن زينب ردت ما جاءها ، فلم تملك عائشة لسانها :

« لقد أقمأت وجهك حين ترد عليك الهدية »

فقام عنها مغضبا وهو يقول :

« أنتن أهون على الله من أن تقمئننى »

---

(١) ارجع الى صفحة ٨٠ ــ والى السمط الثمين ص ٨٠
(٢) السمط الثمين ص ٤٠

وأطولهن يدا

على أن هذه الخصومة المحتدمة بين الزوجتين الأوليين ، لم تمنع حفيدة أبى طالب من الدفاع عن « عائشة » فى محنة الافك ، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت :

« وكان كبر ذلك ـ الافك ـ عند عبد الله بن أبىّ بن سلول فى رجال من الخزرج ، مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى فى المنزلة عند غيرها . فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل الا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى لأختها ، فشقيت بذلك » (١)

أجل عصمها الله تعالى بدينها ، وقد كانت « زينب » صالحة تقية ، صادقة التدين

شهدت لها بذلك كله غريمتها السيدة عائشة فقالت :

« ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل » (٢)

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب « ان زينب بنت جحش أواهة » فقال رجل : يا رسول الله : ما الأواه ؟.. قال : الخاشع المتضرع . ثم تلا عليه الصلاة والسلام : « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » (٣)

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣١٢/٣

(٢) السمط الثمين : ص ١١٠ ــ والاستيعاب : ١٨٥١/٤

(٣) المرجع نفسه : ص ١١١ ، والاستيعاب : ١٨٥٢/٤ ــ والآية من سورة هود (٧٥)

وكانت كذلك كريمة خيرة ، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذى أكرمها وأعزها ، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها

***

وألفى موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما بين « زينب » وبين ضرائرها من أثر التنافس على زوجهن الرسول ، فلم يعدن يذكرن الا انها كانت له صلى الله عليه وسلم زوجا حبيبة ، وللمؤمنين أما رحيمة ، ولربها عابدة قانتة

ذكرتها « أم سلمة » فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين « عائشة » ثم قالت :

« كانت زينب لرسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة ، تعمل بيديها وتتصدق بذلك كله على المساكين »

وسمعت « عائشة » تقول حين بلغها نعى « زينب » :

« ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل »

ثم قالت :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا ..

« فكنا اذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى صلى الله عليه وسلم انما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق فى سبيل الله » (١)

ويروون أن « عمر بن الخطاب : أمير المؤمنين » أرسل اليها عطاءها اثنى

(١) السمط الثمين : ص ١١٠ ــ والاستيعاب : ١٨٥١/٤

عشر ألفا ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركنى هـذا المـال فى قابل ، فانه فتنة » (١)

ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فبلغ « عمر » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل اليها بالسلام وقال :

« بلغنى ما فرقتِ ، فأرسل ألف درهم تستبقينها »

وأرسل الألف ، فتصدقت بها جميعا ، لم تبق منها درهما

وحين حضرتها الوفاة ـ سنة عشرين ـ (٢) قالت :

« انى قد أعددت كفنى ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث الىّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما » (٣)

وكانت سنها يوم ماتت ، ثلاثا وخمسين سنة

---

(١) السمط الثمين : ١١١

(٢) فى رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية (الاستيعاب ـ ١٨٥٢/٤)

(٣) الاصابة حـ ٨

الفصل التاسع

جويرية بنت الحارث

سيدة بني المصطلق

"لما قسم رسول الله سبايا بني
المصطلق وقعت جويريه بنت الحارث
في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له
فكاتبته على نفسها . وكانت امرأة حلوة
ملاحة ، لا يراها أحد إلا اخذت بنفسه ، فأتت
رسول الله تستعينه في كتابتها ، فوالله ما هو
الا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت
أن سيرى فيها صلى الله عليه وسلم ما رأيت !"

عائشة بنت أبي بكر

الأسيرة الحسناء

شغل الرسول عن منازعات زوجاته وتنافسهن ــ اثر زواجه بزينب بنت جحش ــ بأحداث هامة كبار ، ملأت النصف الثانى للعام الخامس الهجرى ، ففى شهر شوال كانت وقعة « الخندق » التى لقى فيها الرسول والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين أغراهم بالخروج لحرب الرسول فى مدينته ، نفر من اليهود وعدوهم بالنصر

لقيهم الرسول فى ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذى حفره حول المدينة ، وقد أقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد (١)

ونقض اليهود العهد الذى قطعوه على أنفسهم بالحياد ، وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، وقال قائلون : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط » (٢)

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال مع الرسول طمعا فى الغنيمة ، فلما ظنوا أنه مهزوم ، كروا راجعين الى ديارهم

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما ، ثم دارت الدائرة على المشركين ، وتم النصر للرسول والذين معه

***

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة ، وأووا الى بيوتهم فى الصبح يلتمسون راحة طويلة ، فما انتصف النهار حتى تناهى الى أسماعهم صوت داعى الرسول يؤذن فى الناس :

(١ ، ٢)ابن هشام : السيرة ٢٣٠/٣

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة » [١]

واستأنفوا القتال ، وحاصروا يهود بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم فى شهر ذى القعدة وصدر ذى الحجة

وأقبلت السنة السادسة ، لتشهد الرسول يغزو بنى لحيان . ثم يتبعها غزوة ذى قرد ، [٢] ويعود الى المدينة فما يقيم بها شهرا وبعض شهر . حتى يبلغه أن بنى المصطلق ـ وهم حى من خزاعة ـ يجمعون الجموع لقتال الرسول ، بقيادة زعيمهم « الحارث بن أبى ضرار » [٣]

وخرج اليهم الرسول ومعه من نسائه « عائشة بنت الصديق » حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع ، فكان قتال مرير ، انتهى بهزيمة بنى المصطلق

وسيقت نساؤهم سبايا ، وفيهن « برة بنت الحارث بن أبى ضرار » زعيم القوم وقائدهم ، أو « جويرية » كما سماها الرسول بعد

وقفل الرسول راجعا الى المدينة ، ليفتقد « عائشة » ثم لا يلبث أن يراها تدخل المدينة على بعير «صفوان بن المعطل السلمى» فيطمئن عليها ، ويخرج ليوزع الغنائم على من اشتركوا فى قتال بنى المصطلق

ثم انصرف الى بيته خالى البال الا من شئون الدعوة التى أوشكت أن تقضى على الوثنية المشركة والضلال الموروث

فبينا هو جالس يوما فى حجرة عائشة ، سمعت أنثى تستأذن فى لقاء الرسول بصوت شجى مؤثر

وقامت « عائشة » الى الباب لترى مَن تلك ، فاذا شابة حلوة ، مفرطة الملاحة ، « لايراها أحد الا أخذت بنفسه » [٤] ، فى نحو العشرين [٥] من عمرها ، ترتجف قلقا وذعرا ، وقد زادها انفعالا حيوية وسحرا

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥٣/٣ ـ والسيرة : ٣٠١/٣
(٢) تاريخ الطبرى ، حوادث السنة السادسة للهجرة
(٣) تاريخ الطبرى : ٦٤/٣ ـ السيرة : ٣٠٢/٣
(٤) ابن اسحاق فى السيرة : ٣٠٧/٣ ، وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ والاستيعاب ١٨٠٤/٤
(٥) السمط الثمين : ص ١١٧

وكرهتها « عائشة » من النظـرة الاولى ، فوقفت حيالها وبودها لو تحول بينها وبين زوجها الرسول ، الذى كان اذ ذاك يستريح

لكن الغريبة ألحت فى الاستئذان على الرسول ، فلم تملك « عائشة » الا أن تستأذن لها كارهة ، وفى نفسها خاطر مقلق

ودخلت الشابة المليحة على الرسول فقالت فى ضراعة تمازجها عزة :

« يا رسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيـد قومه ، وقـد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس .. فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على أمرى » (١)

فتأثر الفارس العربى للكريمة المهـانة والعزيزة المستـذلة . واستثار شهامتَه موقفُ سيدة حرة أصيلة ، تلوذ به ـ وهو الذى أذل قومها ـ لتنجو من مهانة السبى وعار الرق

ورق قلبه لبرة ، العربية الخزاعية ، بنت سيد بنى المصطلق ، اذ تقف ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق ، تترنح على حافة الهاوية ، ولا مَن ينقذها سواه

ولم يهن عليه أن يقطع ذلك الخيط من الرجاء ، تتشبث به فى محنتها ليعصمها من الانهيار

***

وتكلم محمد صلى الله عليه وسلم أخيرا :

« فهل لك فى خير من ذلك ؟ »

سألت فى لهفة وحيرة :

« وما هو يا رسول الله ؟ »

أجاب :

---

(١) السيرة : ٣/٣٠٧ ـ وتاريخ الطبرى ٣ : ٦٦ ـ والاستيعاب : ٤/١٨٠٤

« أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك ! »

فتألق وجهها الجميل بفرحة غامرة ، وهتفت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان : [1]

« نعم يا رسول الله ! »

ورد عليها الفارس الرسول :

« قد فعلت ! »

(١) السيرة : ٣٠٧/٣ ـ وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ ـ والاستيعاب : ١٨٠٤/٤

بركة العروس

وما أسرع ما خرج الخبر الى الناس أن رسول الله قد تزوج بنت الحارث بن أبى ضرار ، فتداعى أصحاب محمد لتكريم السيدة التى أعزها نبيهم بالزواج (١)

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون : (٢)

« أصهار رسول الله »

ودخلت العروس بيت النبى ، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها : أعتق بزواجها من الرسول ، أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق (٣)

وسماها (٤) الرسول « جويرية » كراهة أن يقال : خرج من عند «برة»

وظلت جويرية ما عاشت ، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيت الرسول فيها ، فنجت من العار ، وأعتقت قومها من الأسر، وكرمت بالزواج من سيد البشر

وكذلك ظلت « عائشة » تذكر تلك اللحظة ، لكن فى مرارة وألم ، فتقول فى صراحة مؤثرة :

« ... وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه فى كتابتها ، فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أن سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيت .. » (٥)

---

(١) السيرة : ٣٠٧/٣ ــ وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ ــ والاستيعاب : ١٨٠٤/٤

(٢) ، (٣) ابن اسحاق فى السيرة : ٣٠٧/٣ ــ وتاريخ الطبرى : ٦٦/٣ والسمط الثمين ١١٦

(٤) السمط الثمين : ١١٧

(٥) الاصابة : ٤٤/٨ وتاريخ الطبرى ٦٦/٣ ــ والاستيعاب : ١٨٠٤/٤.

وهل من حرج على الرسول فى أن ينظر لجويرية ، وهى أسيرة حرب أنزلها السباء منزلة الاماء ؟

لو كانت حرة ، لأمنت عائشة من أن يملأ الرسول عينه منها ، اللهم الا أن تتجه نيته الى نكاحها ، وقد كان يرخص فى النظر الى المرأة عند ارادة نكاحها ، وقال لواحد من صحابته استشاره فى نكاح امرأة :

« لو نظرتَ اليها ، فان ذلك أحرى أن يدوم بينكما »

وقد كان ما توقعت « عائشة » وخافت :

نظر الرسول الى الأسيرة الحسناء ، وأصبحت «جويرية بنت الحارث» شريكة لعائشة فى بيت الرسول

كما أصبحت ــ وقد أسلمت وحسن اسلامها ــ أما للمؤمنين

يروون أن أباها « الحارث » جاء المدينة قبل أن يعلن الرسول زواجه بها ، فقال للنبى :

« يا محمد ، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فان ابنتى لا يسبى مثلها ! »

فقال له الرسول :

« أرأيتَ أن أخيرها ، أليس قد أحسنتُ ؟ »

فأجاب :

« بلى »

فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت :

« اخترت الله ورسوله »

وقيل كذلك أن « الحارث » سمع من الرسول حديثا عما جاء فيه من فداء ابنته ، فصاح بصوت جهير :

« أشهد أن لا اله الا الله ، وأنك محمد رسول الله »

فخطب الرسول اليه ابنته ، فزوجه اياها وأصدقها أربعمائة درهم (١).

---

(١) السيرة : ٣٠٨/٣ والسمط الثمين ١١٧

على أن « عائشة » ما لبثت أن شغلت عن « جويرية » وغير جويرية ، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بنى المصطلق ، من قيل وقال

حتى اذا انجلت غمة الافك ، وعادت عائشة الى بيت النبى معتزة بما أنزل الله فى براءتها من آيات ، واجهتها « جويرية » بملاحتها الأخاذة ، فما كان من عائشة الا أن قالت فى زهو وهى تنقل بصرها بين جويرية ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وحفصة ، وطيف ماثل من خديجة :

« لم يتزوج ، صلى الله عليه وسلم ، بكرا سواى » [١]

ذلك أن « جويرية » كانت قبل أن تسبى ، زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقى [٢]

وقد عاشت الى أن استقر الأمر لمعاوية ، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجرى [٣]

وعرفت فى تاريخ الاسلام ، بأم المؤمنين التى لم تكن امرأة أعظم على قومها بركة منها

---

(١) السمط الثمين : ص ٨٧

(٢) كذا جاء فى الاستيعاب (١٨٠٤/٤) والسمط الثمين ص ١١٦ ــ وفيه كذلك (ص ١١٧) انها كانت عند ابن عم لها يقال له عبد الله ، ومثله فى سيرة ابن هشام (٢٩٦/٣)

(٣) السمط الثمين : ١١٨ ــ وانظر الاصابة : ٤٤/٨ ــ والاستيعاب : ١٨٠٤/٨

الفصل العاشر

صفية بنت حيي

عقيلة بنى النضير

«وأمر صلى الله عليه وسلم بصفية
فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه،
فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه»
السيرة النبوية

معركة ظافرة

انتهت السنة السادسة للهجرة ، بعد أن أحدثت فى بيت النبى ضجة ما مثلها ضجة : تزوج فيها الرسول بجويرية بنت الحارث ، وابتلى بمحنة الإفك فى أعز زوجاته صلى الله عليه وسلم وأحبهن الى قلبه بعد خديجة

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع ، والرسول يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يبيتون للاسلام من شر ، أى شر !

وخرج الرسول فى النصف الثانى من المحرم الى « خيبر » معقل العدو ، فما أشرف عليها حتى هتف :

« الله أكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١)

وخربت خيبر : فتحت حصونها حصنا حصنا ، وقتل رجالها ، وسبى نساؤها ، وفيهن عقيلة بنى النضير : صفية بنت حيى بن أخطب ، التى ينتهى نسبها الى هرون أخى موسى عليه السلام ، وأمها برة بنت سموءل (٢)

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها

لكنها — على صغر السن — تزوجت مرتين :

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم : « سلام بن مشكم » (٣)

ثم خلف عليها « كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق (٤) » صاحب حصن « القموص » أعز حصن فى خيبر

---

(١) السيرة : ٣٤٤/٣

(٢) السيرة ٣٤٤/٣ وانظر غزوة خيبر فى تاريخ الطبرى : ٩٢/٣ — والاستيعاب : ١٨٧١/٤

(٣) السمط الثمين : ١١٨ — والاصابة : حـ ٨ — والاستيعاب : جـ ٤

(٤) كذا فى الطبرى « ٩٥/٣ » ولكن الذى فى الاستيعاب (١٨٧١/٤) أن اسمه « كنانة ابن أبى الحقيق »

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال مرير ، وجيء الرسول بكنانة حيا ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله الرســول عنه فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فقال الرسول :

« أرأيتَ ان وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ »

قال : نعم ..

فلما اكتشف مخبأ الكنز عنده ، دفعه الرسول الى « محمد بن سلمة » فضرب عنقه بأخيه « محمود بن مسلمة » الذى قتله اليهود فى المعركة (١)

وسيقت نساء القموص سبايا ، وفى مقدمتهن « صفية » زوج كنانة ، وابنة عم لها ، يقودهما « بلال » مؤذن الرسول

ومر بهما بلال على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود ، فهمَّت « صفية » أن تصيح ، لكن الصيحة احتبست فى حلقها لا تنطلق

أما ابنة عمها فأعولت صارخة ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على راسها ..

وجيء بهما الى الرسول :

« صفية » فى حزنها الصامت وجزعها المكبوت ، تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء ، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر ، وان بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة وجلال

والأخرى ، شعثاء الشعر ، معفرة بالتراب ، ممزقة الثياب ، لا تكف عن عويل وتواح

صاح الرسول وهو يشيح بوجهه عنها :

« اغربوا عنى هذه الشيطانة » (٢)

ثم دنا من صفية ، وقد بدا عليهـا أنها راغبة فى أكثر من حماية النبى الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٩٥/٣

(٢) تاريخ الطبرى : ٩٤/٣ والسيرة ٣٥٠/٣

« أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ »
ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك اعلانا بأنه — صلى الله عليه وسلم — قد اصطفاها لنفسه

وفى حديث (١) عن « أنس — رضى الله عنه » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ صفية بنت حيى ، قال لها : هل لك فىَّ ؟ قالت : يا رسول الله .. قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك ، فكيف اذا أمكننى الله منه فى الاسلام ؟..

فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها



(١) السمط الثمين : ص ١٢٠

حلم العروس

وانتظر الرسول بخيبر حتى هدأت المناحة ، وظن أن الروع قد ذهب عن « صفية » أو كاد ، فحملها وراءه وانطلق بها الى منزل فى أطراف خيبر — على بعد ستة أميال منها — فمال [1] يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل

فوجدها — صلى الله عليه وسلم — فى نفسه ، وعز عليه تمنعها ورفضها ، ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره الى المدينة ؛ فلما كان بالصهباء — بعيدا عن خيبر — نزل هناك يستريح ، فبدا له أن «صفية» متهيئة للعرس :

جاءتها ماشطة — يقول ابن اسحق أنها أم أنس بن مالك [2] — فمشطتها وجملتها . وظهرت « صفية » عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول ماشطتها انها لم تر بين النساء أضوأ منها [3]

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التى ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من حصن « القموص » ذليلة أسيرة ، تساق بين السبايا !

وثمت ، أقيمت وليمة العرس حافلة ، وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا ، ثم دخل الرسول على « صفية » وما يزال فى نفسه شىء من رفضها الأول

وأقبلت عليه العروس بادية اللهفة تحدثه حديثا عجبا :

قالت [4] انها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت فى المنام أن قمرا

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠

(٢) السيرة : ٣/٣٤٥

(٣) الاصابة : جـ ٨

(٤) السيرة : ٣/٣٥٠ — والسمط الثمين : ١٢٠ — وتاريخ الطبرى : ٣/٩٤

وقع فى حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضبا :

« ما هذا الا انك تمنين ملك الحجاز محمدا ! »

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه

ونظر الرسول الى أثر اخضرار فى عينها ، وقد سره ما سمع من حديثها ، وهمّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :

« ما حملكِ على الامتناع أولا ؟ » أو قال : ما حملك على ابائك فى المنزل الأول ؟ (١)

وأجابت العروس على الفور :

« خشيتُ عليك قربَ اليهود » (٢)

فزال ما كان يجد فى نفسه من جفوة ، وأشرق وجهه الكريم بابتسامة راضية

***

وهناك خارج القبة التى دخل فيها الرسول على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو « أبو أيوب خالد بن زيد » ساهرا يقظا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من الرسول ، حتى أصبح صلى الله عليه وسلم فرأى مكانه فسأله :

« مالك يا أبا أيوب ؟ »

أجاب :

« يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتُها عليك » (٣)

فيقال ان الرسول دعا له قائلا :

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠
(٢) السمط الثمين : ١٢٠
(٣) السيرة : ٣٥٤/٣ — وانظر الاصابة جـ ٨

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » (١)

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، تلك الفعلة الشنعاء لامرأة من يهود خيبر ، هى « زينب بنت الحارث » ، امرأة سلاّم بن مِشكم ، أحد زعمائهم القواد

دخلت « زينب » هذه على الرسول وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر ، فأهدت اليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أى عضو من الشاة أحب الى رسول الله ؟ قيل لها : الذراع ، فأكثرت السم فى الذراع حتى سرى منها الى سائر الشاة

ووضعتها بين يديه صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه « بشر بن البراء » ، فتناول الرسول الذراع ، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب

لكن الرسول لم يسغ الذراع ، بل لفظها وهو يقول : « ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم »

ودعا بامرأة سلام ، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة . ولما سألها صلى الله عليه وسلم عما حملها على ذلك أجابت :

« بلغتَ من قومى ما لا يخفى عليك ، فقلتُ : ان كان نبيا فسيخبر ، وان كان ملكا استرحت منه »

فتجاوز عنها الرسول ، ومات « بشر بن البراء » من أكلته التى أكل..(٢)

ولا شك أن « أبا أيوب الانصارى » ذكر هذه الفعلة اليهودية ، حين بات ساهرا حول القبة التى دخل فيها الرسول على « صفية » عقيلة بنى النضير

***

وبلغ الركب المدينة ..

وآثر النبى ألا يدخل على زوجاته بالعروس ، فأنزلها فى بيت لصاحبه

(١) ابن هشام ، السيرة : ٣٥٥/٣

(٢) ابن هشام ، السيرة : ٣٥٢/٣ — وتاريخ الطبرى : ٩٥/٣

وتسامعت نساء الأنصار بها ، فجئن ينظرن الى جمالها ، ولمح الرسول زوجته « عائشة » تخرج متنقبة على حـذر ، فتتبع خطواتها من بعيـد ، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

«كيف رأيتِ يا شقيراء ؟ »

فأجفلت عائشة ، وقد هاجت غيرتها ، ثم هزت كتفها وهى تجيب :

« رأيت يهودية ! »

ورد عليها الرسول :

« لا تقولى ذلك ، فانها أسلمت وحسن اسلامها ! » (١)

ولم تعلق « عائشة » بكلمة ، بل سارت الى البيت حيث كانت حفصة فى انتظارها ، مشوقة الى أن تسمع رأيها فى العروس

ولم تنكر « عائشة » أنها جميلة حقا ، وزادت فحدثت « حفصة » عما كان من تتبع الرسول لها وحواره معها

---

(١) سنن ابن ماجة ــ والاصابة : حـ ٨ ــ والسمط الثمين : ص ٨٠

أبى هارون، وعمى موسى

ثم انتقلت « صفية » الى دور النبى ، فواجهتها هناك مشكلة محيرة :
كانت عائشة ومعها حفصة وسودة فى جانب : والزوجات الأخريات فى
جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء ، بنت النبى

وكان على « صفية » أن تختار ، وانها لمهمة دقيقة شاقة ، فما كانت فى
ذكائها بالتى تناصب « الزوجة الأثيرة » أو « الابنة الغالية » عداء أو شبه
عداء !

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث ، فقررت أن تتقرب
من عائشة وحفصة والزهراء جميعا !

وكان مظهر تقربها الى ابنتى أبى بكر وعمر ، اظهار استعدادها
للانضمام اليهما ..

أما « الزهراء » فأهدتها (١) « صفية بنت حيى » حلية لها من ذهب ،
رمزا لمودتها واعلانا لمسالمتها !

ومامن شك فى أن « صفية » أرادت أن تحتمى بهذا الموقف اللبق ، مما
كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودى ، وتذكير بما بين قومها والاسلام
من عداء مستحكم مرير

وما كان لها ، فى الحق ، أن تخشى أذى من « الزهراء بنت الرسول »
فانها — رضى الله عنها — كانت أحرص الناس على سلام ، وأبر بأبيها
الرسول من أن تشارك فى هذا الضجيج النسوى ، اللهم الا أن تدفع الى
شىء من ذلك دفعا ، كالذى أشرنا اليه من سفارتها لزوجات النبى عند أبيها
صلى الله عليه وسلم فى أمر السيدة عائشة (٢)

---

(١) الاصابة : جـ ١٢٧/٨
(٢) أنظر صفحة (٩٣) والسمط الثمين ص ٢٧

وانما الخوف كل الخوف من « عائشة » فى غيرتها العارمة ، وضيقها بكل حسناء تدخل بيت الرسول وتشاركها فيه !

ولم يعصم «صفية» مما كانت تخاف ، تقربها من عائشة وحفصة ، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودى الذى يجرى فى عروقها ؟ ! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام مسمومة ، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن ، فى ظل أكرم زوج ورعاية أعز رجل !

والذى آلم « صفية » أن عائشة وحفصة ــ اللتين انضمت اليهما ــ كانتا تشاركان الزوجات الأخريات فى النيل منها ، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات ، وهى الأجنبية الدخيلة

***

وبلغ « صفية » كلام عن حفصة وعائشة ، فلما حدثت النبى به وهى تبكى ، قال صلى الله عليه وسلم وهو يمسح (١) دموعها بردائه ويده :

« ألا قلت : وكيف تكونان خيرا منى ، وزوجى محمد ، وأبى هرون ، وعمى موسى ؟ » (٢)

ونزل كلام الرسول على « صفية » بردا وسلاما ، وكان لها منه حمى وملاذ

***

وكان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحس غربة « صفية » فى دوره بين زوجاته العربيات القرشيات ، فيتأهب للدفاع عنها كلما أتيحت له فرصة

حدثوا (٣) أنه كان فى سفر ومعه « صفية » و « زينب بنت جحش » فاعتل بعير « صفية » وفى ابل زينب فضل ، فقال لها :

« ان بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا ؟ »

أجابت فى ترفع وازدراء :

« أنا أعطى تلك اليهودية ؟ »

---

(١) السمط الثمين : ص ١٢٢

(٢) الاصابة : ١٢٧/٨ ــ والسمط الثمين : ص ١٢١ ــ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤

(٣) الاصابة : ١٢٧/٨ ــ والسمط الثمين ١٢١ ــ وسنن أبى داود

فولى الرسول عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لايقربها ، أو قيل : « فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد ، وعاد الى ما كان عليه معها » (١)

ولم تحرم « صفية » هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام

يروون أن أمهــات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول فى مرضــه الأخير ، فقالت صفية :

ــ انى والله يا نبى الله ، لوددت أن الذى بك بى

فتبادلت الأخريات نظرات ذات معنى ، فما راعهن الا أن قال الرسول :

« مضمضن ! »

تساءلن فى دهشة :

« من أى شىء ؟ »

أجاب :

« من تغامزكن بها ، والله انها لصادقة » (١)

***

ولحق الرسول بربه الكريم ، وافتقدت « صفية » تلك الحماية الطيبة ، فما نسى الناس لها أنها منحدرة من سلالة يهود ، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التى لم يكفِ لسدّها حسنُ اسلام صفية ، وزواجها من نبى المسلمين

حدثوا (٢) أن جارية لها أتت « أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، ان صفية تحب السبت وتصل اليهود »

فبعث « عمر » الى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :

« أما السبت فانى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود فان لى فيهم رِحما فأنا أصِلها ! »

---

(١) الاستيعاب : ١٨٥٠/٤

(٢) الاصابة : ١٢٧/٨

(٣) السمط الثمين : ١٢٢ ــ والاصابة ٨/ ١٢٧ ــ والاستيعاب : ١٨٧٢/٤

ثم انثنت الى جاريتها فسألتها عما حملها على مثل ذلك الافتراء ، فأجابت الجارية : « الشيطان ! »

وردت « صفية » :

« اذهبى فأنت حرة » (١)

***

واندفعت « صفية » راضية أو كارهة ، تشارك فى المعركة السياسية التى بدأت فى عهد « عثمان » وكان موقفها اذ ذاك شبيها بموقفها بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التى كانت حينذاك ذات نفوذ سياسى قوى ، ومكانة فى الدولة الاسلامية رفيعة ، لم تأل «صفية» جهدا فى الولاء لأمير المؤمنين «عثمان» الذى ما فتئت «عائشة» تحرض عليه ، حتى بلغ بها الأمر أن دلت قميص رسول الله من بيتها وصاحت فى المسلمين :

« أيها الناس ، هذا قميص رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته..»

حدث مولى لصفية يدعى كنانة — وقيل هو ابن أخيها ! — قال :

«قدمت صفية — فى حجابها — على بغلة لترد عن عثمان ، فلقينا الأشتر فضرب وجه البغلة — وهو لا يعرف راكبتها — فقالت لى صفية :

— ردنى لا تفضحنى !

ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل اليه الطعام والماء وهو فى محنة الحصار » (٢)

وماتت « صفية » حوالى سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ..

ودفنت بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين .. (٣)

وتركت اسمها فى كتب الحديث ، ومن بين الذين رووا عنها : ابن أخيها ومولاها كنانة ، ومولاها الآخر يزيد بن متعب ، والامام زين العابدين على بن الحسين ، ومسلم بن صفوان ..

---

(١) السمط الثمين : ١١٢ — والاصابة ١٢٧/٨ — والاستيعاب : ١٨٧٢/٤
(٢) الاصابة : ١٢٧/٨
(٣) السمط الثمين : ١٢٣

الفصل الحادي عشر

أم حبيبة

بنت أبي سفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » .. فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه »

ابن هشام : السيرة ٤/٣٨

عودة المهاجرين

عاد البطل المظفر الى مدينته وقد تم له النصر على « خيبر » ، وتزوج عقيلة بنت النضير ، وسيقت بين يديه غنائم اليهود

وتأهبت « المدينة » للقاء الجيش العائد ، وقد أعدت للبطل أسعد مفاجأة ترضيه !

فهناك فى « المدينة » ، والرسول غائب فى خيبر ، كان مهاجرو الحبشة قد جاءوا فى صحبة « عمرو بن أمية الضمرى » الذى بعثه النبى الى « النجاشى » ليعود بمن بقى فى بلاده من المهاجرين الأولين (١)

وحملهم (٢) « عمرو » فى سفينتين ، فبلغ بهم « المدينة » حيث الأهل والأنصار ، ومعركة « خيبر » اذ ذاك فى ذروة احتدامها

وأعقب وصولهم اعلانُ فتح «خيبر» والنصر الساحق على يهودها ، وخرج أهل « المدينة » لاستقبال العسكر المنتصر ، فضاقت بهم أرجاء الوادى ، وقد بحت أصواتهم من هتاف ودعاء

وأهلَّ عليهم الرسول البطل ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من « مكة » أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كان آخر عهده — صلى الله عليه وسلم — بهم ، يوم تسللوا من « مكة » أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الاسلام غريبا مهاجرا فتكون له الجنة

وكانوا قد تواعدوا على اللقاء فى الدار الآخرة ، حيث النعيم الذى وعد به المؤمنون ، وها هم أولاء يلتقون فى أرض الوطن ، يوم الاحتفال بفتح خيبر ، وقد صارت لهم الكلمة العليا فى جزيرة العرب !

---

(١) تاريخ الطبرى : ٨٩/٣

(٢) سيرة ابن هشام : ٣/٤

وو ثب الرسول من فوق راحلته ، فالتزم ابن عمه «جعفر بن أبى طالب» معانقا ، وقبل عينيه وهو يقول فى غبطة :

« ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ » (١)

والتفت الرسول من بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين ؛ وقد كانوا فيما أحصى « ابن اسحق » ستة عشر رجلا (٢)

وهناك بين المهاجرات العائدات ، كانت « أم حبيبة ، بنت أبى سفيان ابن حرب » تنتظر الرسول ليحملها الى بيته !

ذلك أن الرسول قد تزوجها وهى ما تزال بالحبشة ، فى السنة السادسة للهجرة . (٣) ولهذا الزواج قصة تبدأ منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا ...

---

(١) ، (٢) السيرة : ٣/٤

(٣) تاريخ الطبرى : ٩٠/٣

محنة الغربة

كانت « رملة » بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد المشركين ، زوجة لابن عمة الرسول ، عبيد الله بن جحش الأسدى ، أخى السيدة زينب أم المؤمنين

وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه « رملة » ، وأبوها « أبو سفيان » على الكفر

وخشيت أذى أبيها ، فهاجرت مع زوجها الى الحبشة وهى مثقلة بحملها ، وتركت أباها « بمكة » وقد جن غيظه وقهره ، أن أسلمت ابنته وليس له اليها سبيل

وهناك فى الحبشة ، وضعت « رملة » بنتها « حبيبة بنت عبيد الله » التى كنيت بها فصارت تدعى « أم حبيبة »

واذ هى فى غربتها تكتم حنينها الى الوطن ، وتحاول أن تجد فى زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة ، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة ، فقد روعت فى الحلم برؤية « عبيد الله » بأسوأ صورة (١) ، واستيقظت لتعلم أن « عبيد الله » قد ارتد عن دينه الذى من أجله هاجر الى الحبشة ، واعتنق « النصرانية » دين النصرانية » دين الأحباش

وحاول أن يردها عن الاسلام فصبرت على دينها (٢)

وكادت « بنت أبى سفيان » تهلك غما وأسى وحسرة :

فيم كانت هجرة عبيد الله اذن ، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وهذا هو يصبأ عن الاسلام الذى من أجله احتملت « رملة » كل ذلك ، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم ؟

---

(١) السمط الثمين : ٩٦
(٢) السيرة ٦/٣ وتاريخ الطبرى : ١١٧/٣

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته ، دفاعا عن مقدسات موروثه عن الأجداد من قديم الحقب والآباد

أما أن يكفر بهذا كله ، ويجحد هذا كله ، ويرضى بالاسلام دينا ليجيء الى الحبشة فيكفر بالدين الجديد ، ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، فى بساطة ودون تحرج ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية مهانة وأى عار ؟

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبهـا لكى تولد لمثل هذا الأب الصـابىء المرتد ؟ وما جريرتها لتخرج الى الحياة فى أرض غريبة : وقد انبتّ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلها ديانات شتى : فأبوها نصرانى ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الاسلام !

واعتزلت « رملة » الناس شاعرة بالخزى لفعلة الرجل الذى كان لها زوجا ، ولا يزال لطفلتها والدا ...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها « حبيبة » مضاعفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها ، ولا سبيل لها الى أرض الوطن ، وهنـاك أبوها يعلن حربا شعواء على النبى الذى صدقته وآمنت به ...

وأين تراها تقيم فى « مكة » لو عادت ؟

أفى بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت ؟

أم فى دار « آل جحش » رهط زوجها ، وقـد أقفرت بهجرة أهلهـا وصارت منهم خلاء ؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن عتبة بن أبى ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة ، مروا بدار بنى جحش وهم مصعدون الى أعلى مكة ، فنظر اليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال :

« وكل دار وان طالت سـلامتها يوما ستدركها النوباء والحوب !

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها »

فقال أبو جهل :

« وما تبكى عليه ؟ » ثم قال :

« هذا عمل ابن أخى ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا » (١)

كلا ، لا سبيل لرملة الى « مكة » والمعركة محتدمة بين أبيها والنبى الذى تتبعه ، ودار بنى جحش تخفق أبوابها يبابا !

---

(١) ابن هشام ـ السيرة : ١١٥/٢

ومرت حقبة من الزمن وهى فى عزلتها الحزينة ، فما شعرت ذات يوم الا وطرقات تلح على بابها الموصد ، مستأذنة لجارية من جوارى النجاشى ، تدعى « أبرهة »

وفتحت «أم حبيبة» الباب ، فدخلت أبرهة وأدت اليها رسالة النجاشى :

« ان الملك يقول لك : وكّلى مَن يزوجك من نبى العرب ، فقد أرسل اليه ليخطبك له ! »

واستعادت « رملة » حديث الجارية مرة ومرتين وثلاثا ، حتى اذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما الى « أبرهة » حلاوة البشرى (١) ، ثم أرسلت الى « خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ابن عبد شمس » ـ كبير المهاجرين من قومها بنى أمية ـ فوكلته فى زواجها

وفى المساء ، دعا النجاشى اليه من بالحبشة من المسلمين ، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب ، ابن عم الرسول ، وخالد بن سعيد ، وكيل رملة

وتكلم النجاشى وترجم المترجم :

« ان محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فمن أولاكم بها ؟ »

أجاب القوم :

« خالد بن سعيد ، قد وكّلته »

فاتجه اليه النجاشى قائلا :

« فزوّجنها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار »

---

(١) السمط الثمين : ٩٧ ، والاصابة جـ ٨

وسكب الدنانير ، فقام خالد وقال :

« قد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوجته أم حبيبة »

وقبض الصداق

وأولم لهم النجاشى وليمة الزواج قائلا : « اجلسوا ، فان سنة الأنبياء اذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج » (١)

ثم أتوا باب « أم حبيبة » مهنئين مباركين

وباتت بنت أبى سفيان ، وهى « أم المؤمنين » !

وأصبحت فجاءتها « أبرهة » تحمل اليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت اليها « أم المؤمنين » خمسين دينارا من صداقها قائلة :

« كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا »

فأبت « أبرهة » أن تمس الدنانير ، وردت السوارين وهى تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن اليها مما عندهن من طيب

وتقبلت « أم حبيبة » الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها الى بيت النبى ، فكان صلى الله عليه وسلم يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره (٢)

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤/١٩٣٠

(٢) الاصابة : جـ ٨ ـ والسمط الثمين : ٩٧ ، ٩٨ ـ والاستيعاب : ٤/١٩٢٩ ، ١٩٣١

بين الأب والزوج

واحتفلت « المدينة » بدخول بنت أبى سفيان بيت الرسول

وأولم « عثمان بن عفان » وليمة حافلة ، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم

وباتت المدينة فى أفراحها ساهرة ، تبارك العرس وتحيى القائد وتحتفل بفتح خيبر ..

وباتت « مكة » ساهرة مؤرقة ، تردد قول زعيمها أبى سفيان وقد بلغه النبأ :

« هذا الفحل لا يجدع أنفه ! » (١)

ولم يكن قد مضى على زواج محمد — صلى الله عليه وسلم — من عقيلة بنى النضير ، غير أيام معدودات !

واستقبلت نساء النبى زميلتهن « أم حبيبة » بشىء من المجاملة ، ولم تر « عائشة » فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها ، أن كانت « رملة » تدنو من عامها الأربعين ، وليس لها سحر صفية ، ولا ملاحة جويرية ، ولا حسن أم سلمة ، ولا جمال زينب ..

وأبدت « عائشة » استعدادها لقبول الزوجة الجديدة فى صفّها ، لكن « بنت أبى سفيان » أنفت أن تكون تابعة لأخرى ..

وبقدر ما أنكرت « عائشة » ألا تسارع « رملة » الى كسب رضاها كما فعلت « حفصة بنت عمر » ، أنكرت « بنت أبى سفيان » على « عائشة » الزهو الطامح الى الاستئثار بالنفوذ فى بيت النبى ..

لكن الجفوة بينهما لم تشتد الى درجة الخصومة السافرة المعلنة ، وان

---

(١) الاصابة : جـ — والسمط الثمين : ٩٩ — والاستيعاب ١٨٤٥/٤

بقيت « عائشة » تهاب « رملة » وتخشى وقوفها فى سبيل ما تشتهى من تفرد بالكلمة العليا بين زوجات النبى !

وكانت « رملة » بحيث تفعل ما تخشاه « عائشة » لولا أن ظلت تحس فى أعماقها حزنا قاسيا ، لأن أباها لايزال على الوثنية الضالة

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة ، تأكل من تأكل من رجال أعزة عليها ، فما من قتيل الا وهو من شيعة أبيها ، وما من شهيد الا وهو من صحابة زوجها ، أبنائها المؤمنين !

***

وتناهى اليها يوما أنقريشا نقضت عهد «الحديبية» (١) وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها الرسول ، أنه صلى الله عليه وسلم لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يغــدر به أو ينقض له عهد ، فهــل تراه يغزو « مكة » ليهدم الأصنام على رءوس المشركين ، وفيهم أبوها ، واخوتها ، وكل أهلها وعشيرتها ؟

كذلك لاحت نذر الخطر فى « مكة » ، فاجتمع قادتها يتشاورون فى أمر « محمد » الذى يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به ، لقد كانوا منذ قليل يستهينون بمحمد ومن اتبعه ، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ ، وصار له السلطان الاكبر فى شبه الجزيرة ؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم الى المدينة يفاوض محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون رسولهم ؟

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع « أبو سفيان » الا أن يذعن ، وأنى له أن يعتذر وهو الذى أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ؟.. فليصل اليوم حرها ، وليمض الى « محمد » خصمه الألد ، يسأله الموادعة والمسالمة !

---

(١) تاريخ الطبرى : ١١١/٣

وخرج « أبو سفيان » يريد المدينة صاغرا مكرها ، فلما بلغها أشفق من لقاء « محمد » وذكر أن له ابنة هناك فى بيت خصمه ، فتسلل اليها يستعين بها على ما جاء من أجله

وفوجئت به « أم المؤمنين » يدخل بيتها (١) ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة ، فوقفت تجاهه بادية الحيرة ، لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول ..

وأدرك « أبو سفيان » ما تعانيه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس ، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش ، فما راعه الا أن وثبت « رملة » فاختطفت الفراش وطوته فى اعزاز ، ثم وقفت تلهث

سألها وهو يلوذ بالصبر :

« أطويته يا بنية رغبة بى عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عنى ؟ »

وجاءه جوابها :

« هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه ! »

قال والألم يفرى كبده :

« لقد أصابك يا بنية بعدى شر » (٢)

وانصرف غاضبا ..

واستندت هى على جدار بيتها ، عصية الدمع ، معطلة الحواس حتى جاء رسول الله أخيرا فحدثها بما كان من أمر « أبى سفيان » ذهب (٣) الى النبى فكلمه فى العهد فلم يجبه بشىء ..

فتوسل بأبى بكر الى الرسول لكن أبا بكر رفض ..

فكلم « عمر بن الخطاب » فرد عليه فى غلظة وجفاء :

« أنا أشفع لكم الى رسول الله ؟.. فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به ! »

(١) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤
(٢) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤ وتاريخ الطبرى : ١١٢/٣ والسمط الثمين : ص ١٠٠
(٣) سيرة ابن هشام : ٢٨/٤ وتاريخ الطبرى : ١١٢/٣

وانطلق (١) أبو سفيان الى بيت « على بن أبى طالب » وعنده فاطمة بنت رسول الله ، وولدها الحسن يدب بين يديها ، فقال : « يا على ، انك أمس القوم بى رحما ، وانى قد جئت فى حاجة .. فاشفع لى الى محمد »

أجاب « على » :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه »

فالتفت أبو سفيان الى السيدة فاطمة وسأل فى ضراعة :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين النـــاس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ »

أجابت رضى الله عنها :

« والله ما بلغ بنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم »

واذ سدت السبل فى وجهه ، التمس نصيحة ابن عم الرسول ، على بن أبى طالب ، فقال كرم الله وجهه :

« والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا ، لكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . وما أظن ذلك مغنيا ، ولكنى لا أجد لك غيره » (٢)

فذهب « أبو سفيان » الى المسجد ، وهناك أعلن انه أجار بين الناس ، ثم أسرع الى راحلته وانطلـــق بها يعـــدو فى طريق مكة ، كأنه يفر من مطارد ..

***

سمعت « أم المؤمنين » ما جرى لأبيها ، فما زادت على أن دعت لزوجها الرسول بالنصر ، وقد رأته يتخذ أهبة للمعركة الحاسمة فى البلد الحرام

ولعل نساء النبى راقبنها وهى فى موقفهـــا ذاك الدقيق الحرج ، ترى جيش المدينة يتأهب لأخـــذ قومها على غرة ، ومكة لا تزال فى حيرة من

(١) ، (٢) السيرة : ٣٩/٤ وتاريخ الطبرى : ١١٣/٣

(٣) سيرة ابن هشام : ٣٨/٤ — وتاريخ الطبرى : ١١٢/٣

الأمر ؛ تستمع لما كان من أمر أبى سفيان الذى رجع من وفادته خائبا على غير فرار ، يقول : (١)

« جئت محمدا فوالله ما رد علىّ شيئا . ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ؛ ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو »

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة ؛ دقيقا أشد الدقة ؛ فانتصار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى القضاء على أبيها وعشيرتها ، وان « أم المؤمنين » لتناصب قومها العداء ، وتبرأ منهم الى الله ورسوله ، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سيطت به ؟.. وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذى ينتظرهم ؟ !

واذ هى فى حيرتها المضنية ، لاح لها شعاع من الأمل :

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان ، كما أسلم عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وأبو العاص بن الربيع ، زوج بنت الرسول ؟

انه لأمل واه ، أقرب الى أن يكون سرابا ، ولكن زوجة النبى تشبثت به ليعصمها من الحيرة والجزع ، فتوجهت الى السماء ؛ تدعو الله أن يهدى أبا سفيان الى الاسلام !

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما ، فتلت ما نزل من آى الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم » (٢)

وكان هذا أقصى ما تملك « أم المؤمنين ، بنت أبى سفيان » لأبيها وأهلها

على حين بلغ الجزع برجل من صحابة النبى الذين شهدوا بدرا ؛ أن بعث كتابا مع امرأة من « مكة » تدعى « سارة » ووعدها مكافأة سخية اذا هى أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذى يوشك أن يدهمهم (٣)

---

(١) السيرة : ٣٩/٤ وتاريخ الطبرى : ١١٣/٣
(٢) السمط الثمين : ١١٠ ـ والآية من سورة الممتحنة (٧)
(٣) سيرة ابن هشام : ٤٠/٤ ـ والاصابة : حرف الحاء

وعلم النبى بكتاب صاحبه « حاطب بن أبى بلتعة » فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فأدركا « سارة » وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها

ودعا النبى اليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك . قال حاطب :

«يارسول الله ، أما والله انى لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرتُ ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهــل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم »

فوثب به « عمر بن الخطاب » واستأذن الرسول فى أن يضرب عنقه ، لكنه صلى الله عليه وسلم حال دونه ، أن كان أحد أصحاب « بدر » [١]

وانما جئت بحديث « حاطب » هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على « أم المؤمنين بنت أبى سفيان » حين ودعت زوجها الرســول وهو خارج فى عشرة آلاف مقاتل يريد « مكة » !

***

وتم الفتح ..

وطارت البشرى الى « المدينة » بما أفاء الله على رسوله من نصر ..

وتسامعت « دار الهجرة » بما كان من لقاء الرسول بأبى سفيان ، الذى أرسلته مكة ــ حين رأت نيران العسكر الغــازى تتوهج قريبــا منها ــ ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام

وعرف « العباس بن عبد المطلب » أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر : [٢]

« ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش اذا دخل مكة عنوة ! »

قال أبو سفيان :

« فما الحيلة فداكَ أبى وأمى ؟ »

---

(١) سيرة ابن هشام : ١٠/٤ ــ والاصابة : حرف الحاء
(٢) السيرة : ٤٥/٤ ــ وتاريخ الطبرى : ٤٠/٣

فأردفه « العباس » وراءه ، وسار به خلال المعسكر ، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلوب المشركين

فلما مرا بنار « عمر بن الخطاب » عرف أبا سفيان فأسرع الى خيمة النبى مستأذنا فى أن يضرب عنقه ..

وجاء العباس ، على أثره فقال :

« انى يا رسول الله قد أجرته »

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول :

« اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فائتنى به »

وقضى « أبو سفيان » ليلته مؤرقا يترقب حكم « محمد بن عبد الله » فى كبير قريش

فلما كان الصبح (١) جىء بأبى سفيان الى حضرة النبى ، وفى مجلسه كبار المهاجرين والأنصار

وتكلم النبى صلى الله عليه وسلم :

« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ »

أجاب الرجل :

« بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد ! »

قال الرسول :

« ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ »

أجاب « أبو رملة » :

« بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هـذه ، فوالله ان فى النفس منها حتى الآن شيئا ! »

---

(١) السيرة : ٤/٤٥ ـ وتاريخ الطبرى : ٣/٤٠

ولكن « أبا سفيان » ما لبث أن أعلن اسلامه ..

فالتمس « العباس » من النبى صلى الله عليه وسلم أن يكرم الرجل بشىء يرضى حبه للفخر ، فأجاب النبى الكريم :

« نعم .. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » (١)

وبعث أبو سفيان من نادى فى مكة هذا النداء :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. »

فما زالت أصداء الهتاف تنتقل فى الآفاق حتى بلغت « المدينة »

وصاحت « أم حبيبة » وقد هزها الفرح :

« من دخل دار أبى فهو آمن ! »

ألا ما أكرم زوجها الرسول ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !

وسجدت لله شاكرة ..

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة ، وحفصة ، وكل زوجات الرسول ..

***

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها « عائشة » ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة

وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت فى غلوائها أو اشتطت فى اعتدادها بمكانتها

حتى اذا حان الرحيل ، دعت اليها « عائشة بنت أبى بكر » فقالت لها وهى تحتضر :

« قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتحللينني من ذلك ؟ »

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤٦/٤ ــ وتاريخ الطبرى : ١١٧/٣

أو قالت : « قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر : فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك » (١)

فحللتها عائشة واستغفرت لها ؛ وإذ ذاك أضاء وجهها الشاحب بنور الرضا وهمست :

« سررتينى سركِ الله »

وفعلت مثل ذلك مع « أم سلمة بنت زاد الركب » (٢)

ثم رقدت بسلام ، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب : فى مدينة زوجها الرسول ، سنة أربع وأربعين من الهجرة فى خلافة أخيها معاوية (٣)



---

(١) ، (٢) : السمط الثمين ، ص ١٠١
(٣) الاستيعاب : ١٩٢٩/٤

الفصل الثانى عشر

مارية القبطية

أم إبراهيم

« استوصوا بالقبط خيرًا
فإن لهم ذمة ورحمًا »
حديث شريف

وغير بعيد من بيت النبى ، فى منزل خاص ، كانت تقيم واحدة من نساء النبى ، لم تلقب بأم المؤمنين ، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم

ومع انها لم تقم فى دور النبى الملحقة بالمسجد ، الا أن أثرها فى هذه الدور وساكناتها كان جد بعيد ، وحسبنا أن نذكر أنها وحدها التى تظاهرت عليها أزواج النبى جميعا ، فكدن يظفرن بتحريمها على زوجهن الرسول ، لولا أن نزلت فيها آيات التحريم : (١)

« يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك »

فمن تكون هذه السيدة ؟ وكيف دخلت حياة الرسول ؟ وأى موضع كان لها فى هذه الحياة ؟

***

فى قرية من صعيد مصر ، تدعى « حفن » قريبة من بلدة « أنصنا » (٢) الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، ولدت « مارية بنت شمعون » لأب قبطى ، وأم مسيحية رومية

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل فى مطلع شبابها الباكر مع أختها « سيرين » الى قصر « المقوقس » عظيم القبط

وقد سمعت هنالك بما كان من ظهور نبى فى جزيرة العرب يدعو الى دين سماوى جديد ، وكانت فى القصر حين وفد « حاطب بن أبى بلتعة » موفدا من هذا النبى العربى يحمل رسالة الى المقوقس

---

(١) من آية ١ سورة التحريم ـ وانظر السمط الثمين ص ١٤١

(٢) سيرة ابن هشام : ١\٧ ـ وراجع معه القاموس الجغرافى لرمزى ح ١ ط دار الكتب المصرية

وأذن له فى الدخول ، فأدى الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين : فان توليت فانما عليك اثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون »

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه فى عناية وتوقير ، ووضعه فى حُق من عاج دفعه الى واحدة من جواريه

والتفت من بعد ذلك الى « حاطب » يسأله أن يحدثه عن النبى ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مليا ثم قال لحاطب :

« قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعنى ، وأنا أضن بملكى أن أفارقه .. »

ثم دعا بكاتبه فأملى عليه رده :

« .. أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه ، وقد علمتُ أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ..

« وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم ، وبثياب ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك »

ودفع « المقوقس » كتابه الى « حاطب » معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم ، وموصيا اياه بأن يكتم ما دار بينهما ، فلا يسمع القبط منه حرفا واحدا

وانطلق « حاطب » عائدا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، (١) ومعه « مارية » وأختها « سيرين » وعبد خصى ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرون

(١) هذا هو المشهور ، وفى رواية أن المقوقس بعث الى الرسول أربع جوار منهن مارية وسيرين . انظر تاريخ الطبرى ٣\٨٥

ثوبا لينا من نسج مصر ، وجواد مسرج ملجم ، وحمار أشهب ، وجانب من عسل « بنها » وبعض العود والند والمسك

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن ، فسارتا تملآن أعينهما من الوادى الحبيب ، حتى اذا غابت عنهما آخر معالمه ، ألقتا نظرة وداع دامعة ، على الأرض التى حلّت فيها تمائمهما ، ودرج عليها صباهما

وأحس « حاطب » ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق ، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق ، ويروى لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها ، ثم انثنى يتحدث عن النبى الرسول ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب ، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للاسلام ونبيه الكريم

واستغرقهما التفكير فى الحياة الجديدة التى توشك أن تستقبلهما ، وفى السيد النبى الذى ينتظر فى « المدينة » رجوع صاحبه « حاطب » برد المقوقس

***

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة ، وقد عاد الرسول وشيكا من « الحديبية » بعد أن عقد الهدنة مع قريش

وتلقى صلى الله عليه وسلم كتاب المقوقس ، وهدية مصر ..

وأعجبته « مارية » فاكتفى بها ، ووهب أختها « سيرين » لشاعره « حسان بن ثابت »

وطار النبأ الى دور النبى ، أن شابة مصرية حلوة ، جعدة الشعر ، جذابة الملامح ، قد جاءت من أرض النيل هدية للرسول ، فأنزلها صلى الله عليه وسلم بمنزل لحارثة بن النعمان ، قرب المسجد

وتكلفت « عائشة » ما استطاعت من جهد ، لكى تعلل نفسها بألا خطر

عليها من هذه الشابة الجـديدة ، فما كانت سوى جارية قبطيـة غريبة ، أهداها سيد الى سيد

لكنها راحت ترقب فى كثير من القلق ، مظـاهر اهتمام الرسول بتلك المصرية الطارئة ، وقد أثار جزعها أن تراه صلى الله عليه وسلم يكثر من التردد عليها ، ويمكث لديها طويلا [1]



(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ـ وانظر السمط الثمين ص ١٤٠

طيف وأمل

ومضى عام أو نحو عام ، و « مارية » سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، قد اطمأن بها المقام فى كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب ، شأن زوجاته أمهات المؤمنين

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله فى شخص ذلك السيد العظيم الذى ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه

وكانت تحمل فى كيانها سحر مصر ، وفى أعطافها أريج الوادى العطر ، وفى عقلها ذكاء أجداد لها عظام قاوموا الفناء وطمحوا الى الخلود ، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف شائقة ، لايزيس فى حبها العبقرى ، ونفرتيتى فى جمالها الباهر ، وحتشبسوت فى ملكها العتيد ، وكليوباترا فى جاذبيتها المثيرة

ولم يَغِض أبدا ذلك النبع الدافق الذى كان يمدها فى كل آن بعذب الحديث وشهى السمر ، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة « هاجر » زميلتها المصرية التى جاءت من أرض النيل (١) ، وحملت من سيدها « ابراهيم » فأثارت غيرة زوجته السيدة « سارة » فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها الى البيت العتيق ، حيث تركهما هنالك : وحيدين بواد غير ذى زرع

وطالما شاق « مارية » أن يحدثها السيد الرسول عن نجدة السماء التى هدت « هاجر » الى نبع زمزم ، وأن يصف لها كيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت « هاجر »

---

(١) ابن هشام : ٧/١

ملء التاريخ ، وصارت هرولتها ومسعاها بين الصفا والمروة : شعيرة مقدسة من شعائر الحج فى الاسلام

وألِفت « مارية » حين كانت تخلو بنفسها : أن تفكر فى « هاجر » ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب (١) ؛ فلم تخطىء فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت « هاجر » هبة من سارة للنبى ابراهيم . كما أن « مارية » هبة من المقوقس للنبى محمد ، وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات فى بيت السيد النبى ؛ ابراهيم أو محمد

ولكن « هاجر » كانت أما لولد ابراهيم ، فهل تغدو « مارية » أما لولد محمد ؟ !

ما أبعد الأمنية ، بل ما أدناها من المستحيل !

لقد تزوج الرسول منذ ماتت السيدة خديجة ، عشر زوجات ، منهن الشابة الفتية ، والمرأة الناضجة ، ومنهن من كانت ذات ولد . ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للزعيم النبى الذى تخطف الموت أبناءه من خديجة ، فلم يدع له سوى ابنة واحدة ، هى السيدة « فاطمة الزهراء »

وقد شارف السيد الرسول الستين من عمره ، وبدا كأنه كف عن تمنى الولد ، بعد سنين مجدبة ، مع زوجات ذوات عدد

فأنى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لاسماعيل !

يا لها من أمنية أبعد من الوهم ، وياله من أمل أوهى من السراب !

---

(١) ابن هشام : ١\٧١

استقبلت « مارية » عامها الثانى فى حياة الرسول ، وما تكف عن ذكر هاجر واسماعيل وابراهيم

وفجـأة أحست بوادر حمل مسـتكن ، فكذبت احساسـها واتهمت يقظتها ، وخيل اليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شـوقها الملح الى الأمومة ، وتفكيرها الدائم فى هاجر واسماعيل

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهى فى ريب من الأمر ، لا تدرى أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منـام ؟ حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم

هنالك أفضت به الى أختها « سيرين » فأكدت لها أن ليس فى الأمر وهم ولا شبه وهم ، وانما هو جنين حى

وكاد يغشى على « مارية » من فرط الانفعـال وعنف الفرحـة ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا ، وتحقق أملها الذى بدا عقيما واهيا كالسراب

واستغرقتها نشوة حالمة ، حتى جاء السيد الرسول ، فأفضت اليه بالسر الخطير الذى تجنه أحشاؤها

وتذكر بغتة ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها فى الطعام ، وهى أعراض عرفها من قبل فى « خديجة » فى مستهل كل حمل ، لكنه حسبها فى « مارية » وعكة طارئة لا تلبث أن تزول

ورفع الى السماء وجها مشرق الأسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجميل الذى منّ به على عبده الرسول ، اثر فقده لابنته الغالية « زينب » بعـد أن ماتت قبلها رقية ، وأم كلثوم ، ومات عبد الله ، والقاسم ..

واذ حدثته مارية عن ريبتها الأولى فى حملها ، ذكر قوله تعالى عن زكريا :
« قال رب أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر

عتيا ؟.. قال كذلك قال ربك هو علىَّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » (١)

ثم ذكر من بعدها قوله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما ، قال : سلام ، قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم ، قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صَرَّة فصكّت وجهها وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، انه هو الحكيم العليم » (٢)

فضحكت مارية وقالت مدلة بشبابها الدافق :

ـ لكنى لست عجوزا يا رسول الله !

وفاض عالمهما المشترك بالهناءة والغبطة

وسرعان ما سرت البشرى فى أنحاء المدينة أن رسول الله ينتظر مولودا له من « مارية المصرية » ، وما بقارئ حاجة الى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبى

أتحمل هذه الغريبة الطارئة ، ولما يمض عليها فى المدينة سوى عام واحد ، وان منهن من أمضت فى بيت الرسول عدة أعوام بلا حمل ؟

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى ، وأمهات المؤمنين ، وفيهن بنتا أبى بكر وعمر ، وبنت زاد الركب ، وحفيدة أبى طالب ، محرومات لا يلدن ؟

واشتعلت غيرتهن فما يدرين ما يقلن وما يفعلن ، وسرت همسة (٣) خبيثة تتهم « مارية » بمثل ما اتُّهِمت به قبلها ، أمُّ المؤمنين ، عائشة بنت الصديق !

ولقد برئت السيدة عائشة بنت أبى بكر ، بآية من السماء ، فهل تطمع بنت شمعون فى آية كهذه تشهد ببراءتها ؟

ولم يتخلَّ عنها الله تعالى فى محنتها هذه ، بل أتاح لها دليلا حاسما على

---

(١) سورة مريم : الآيتان ٨ ، ٩

(٢) سورة الذاريات : الآيات : ٢٤ — ٣٠

(٣) السمط الثمين : ١٤/١ — والاستيعاب ١٩١٢/٤

كَذب ما رُميت به : حدث محمد بن عبد الله الزهرى عن أنس بن مالك قال : كانت أم ابراهيم سرية النبى صلى الله عليه وسلم فى مشربتها ، وكان قبطى (١) يأوى اليها ويأتيها بالماء والحطب ، فقال الناس فى ذلك : علج يدخل على علجة . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فوجد القبطى على نخلة هناك ، فلما أخذ « سيدنا على » سيفه ، وقع فى نفسه وألقى الرداء الذى كان يستره فتعرى ، فاذا هو مجبوب . فرجع « على » الى النبى (صلعم) فأخبره بما رأى من القبطى (٢) .. ثم جاء جبريل أمين الوحى فقال : السلام عليك يا أبا ابراهيم ، فاطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)

وخاف الرسول على « مارية » فنقلها الى « العالية » بضواحى المدينة ، توفيرا لراحتها وسلامتها ، وعناية بصحتها وصحة جنينها

قالت عائشة : (٤)

« ما غِرتُ على امرأة الا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان ، فكانت جارتنا ، فكان عامةَ الليل والنهار عندها ... فجزعت ، فحوَّلها الى العالية ، وكان يختلف اليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا ، ثم رزقه الله منها الولد وحرمناه منه »

وسهر الرسول عليها يرعاها ، وكذلك فعلت أختها « سيرين » حتى بلغ الجنين أجله ، وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة

ودعا الرسول قابلتها « سلمى : زوج أبى رافع » ثم انتحى ناحية من الدار ، يصلى ويدعو ..

---

(١) هو الذى جاء معها من مصر ، هدية من المقوقس
(٢) الاستيعاب : ٤/١٩١٢
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد — والسمط الثمين ؟ ص ١٤١
(٤) السمط الثمين : ص ١٤٠

فلما جاءته أم رافع بالبشرى (١) أكرمها كل الاكرام ، وخف الى مارية فهنأها بولدها الذى أعتقها من الرق (٢) ، ثم حمل وليده بين يديه مستثار الفرح والحب ، وسماه « ابراهيم » تيمنا باسم جد الأنبياء

وتصـــدق صلى الله عليه وسلم على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد ورقا ، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه ، وأحبوا أن يفرِّغوا مارية للنبى صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من هواه فيهـــا ، فاختـــار الأب الرسول مرضعة ولده ، وجعل فى حيازتها سبعا من الماعز كى ترضعه بلبنها اذا شح ثدياها (٣)

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته ، ويود لو شاركته دنياه كلها فى هذا الأنس

حمله يوما بين ذراعيه الى « عائشـــة » ودعاها فى تلطف وبشر لترى ما فى الصغير من ملامح أبيه ، فأحست « عائشة » كأن سهما نفذ الى قلبها ، وكادت تبكى مما تجد ، لكنها أمسكت عبرتها وقالت فى غيظ :

ـــ ما أرى بينك وبينه شبها !

وأدرك الرسول على الفور مدى ما تكابد ، فانصرف بولده وهو يرثى لعائشة

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمداراة ، حتى كان اليوم الذى اجتمع فيه الرسول بمارية فى بيت « حفصة » فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا ، وكان ما كان من قصة التحريم

وخيل لمارية أنها بلغت منـــاها ، فهذه هى تلد للنبى ولدا كما ولدت « هاجر » لابراهيم ابنه اسماعيل

وهذه هى محنة الغيرة تنتهى على خير لها ، فتكون حادثة تحريم الرسول اياها على نفسه ، ثم عودته اليهـــا ، آية تتلى فى الكتاب المنزل ، وقرآنا

---

(١) وفى رواية ان الذى حمل البشرى الى الرسول ، زوج سلمى ، وانه (صلعم) وهب له عبدا . السمط : ١٤٠ ـــ وانظر الاستيعاب : ٥٤/١

(٢) السمط الثمين : ١٤٢ ـــ وانظر الاستيعاب : ١٩١٣/٤

(٣) الاصابة لابن حجر : جـ ١ ـــ والاستيعاب : ٥٥/١

يتعبد به المسلمون كما كان الأمر مع «هاجر» حين ألقت بها غيرة «سارة» الى القفر المجدب والوادى الموحش الأجرد

ولم يَسعد « مارية » شىء قدر ما أسعدها أن تهب السيد الرسول على اليأس والكبر غلاما تقر به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيـــدة خديجة ..



الهلال الغارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المرير ..

مرض « ابراهيم » ولما يبلغ عامين من عمره ، فجزعت أمه ودعت اليها أختها ، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق ، لكن الحياة أخذت تنطفىء فيه رويدا رويدا (١) ، فجاء أبوه معتمدا على يد « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه فى حجره محزون القلب ضائع الحيلة ، لا يملك الا أن يقول فى أسى وتسليم :

« انا يا ابراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا »

ودمعت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ، ثم أصغى واجما الى حشرجة احتضاره ، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة

وانحنى على جثمان فقيده فقبله والدمع يفيض من عينيه ثم تمالك نفسه فقال :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى الرب ، وأنا يا ابراهيم عليك لمحزونون ، وانا لله وانا اليه راجعون »

ثم نظر الى مارية فى عطف راث ، وقال يواسيها :

« ان له لمرضعا فى الجنة » (٢)

وأقبل ابن عمه صلى الله عليه وسلم « الفضل بن عباس » فغسل الصغير الميت ، وأبوه الرسول جالس يرنو اليه فى حزن بالغ (٣)

---

(١) الاستيعاب : ٥٧/١

(٢) الاصابة لابن حجر : ابراهيم بن محمد

(٣) انظر الاستيعاب : ٥٥/١ — والسمط الثمين ١٤٣

وحمل جثمان « ابراهيم » من منزل أمه على سرير صغير وسار وراءه أبوه وصحابته الى البقيع ، فصلى عليه النبى ، وأضجعه بيده فى قبره ، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء

وآب المشيعون الى « المدينة » واجمين ، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلهم : « انها انكسفت لموت ابراهيم »

وبلغت الكلمة مسمع الرسول ، فالتفت الى أصحابه يقول :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته .. » (١)

وطوى جرحه فى قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه ، واعتكفت « مارية » فى بيتها تحاول أن تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح فى قلب السيد الرسول ، فاذا عزّ الصبر خرجت الى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها ، والتمست راحة فى البكاء

***

ولكن أيام الرسول لم تطل بعد موت « ابراهيم » فى السنة العاشرة للهجرة ، فما أهل ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا صلى الله عليه وسلم ، ثم لحق بربه الأعلى ، وترك « مارية » من بعده تعيش خمس سنوات فى عزلة عن الناس ، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين ، ولا تكاد تخرج الا لكى تزور قبر الحبيب بالمسجد ، أو قبر ولدها بالبقيع

فلما ماتت سنة ست عشرة من الهجرة ، أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع (٢)

وكل نفس ذائقة الموت ، فحسب « مارية » أنها دخلت فى حياة النبى العظيم ، وان السماء تدخلت لحمايتها حين تظاهرت نساء النبى عليها ، وان الله آثرها بفخر أمومتها لابراهيم عليه السلام

---

(١) السمط الثمين ١٤٣ — والاصابة ج ٨

(٢) الاصابة : ج ٨ والسمط الثمين ، ص ١٤٣

وصية الرسول

ثم حسبها بعد هذا كله ، أن دعمت ما بين مصر والجزيرة العربية من صلة عريقة بدأت بهاجر من أعماق الماضى الموغل فى القدم ، فجعلت نبى الاسلام يوصى أتباعه بقوم مارية فيقول :

« اللهَ اللهَ فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فإن لهم نسبا وصهرا »

ويقول :

« استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما »

ولقد ترك صلى الله عليه وسلم هـذه الوصـية ميراثا بعده ، فيقال ان الامام الحسن بن على ــ رضى الله عنه ــ طلب الى معاوية فى مفاوضـات الصلح بينهما ، أن يرفع الخراج عن أهل قرية « حفن » وفيها خئولة ابراهيم عليه السلام

كما يقال ان « عبادة بن الصامت » لما جاء مصر بعد فتحها ، بحث عن تلك القرية وسأل عن موضع بيت مارية ، فبنى به مسجدا ...

الفصل الثالث عشر

ميمونة بنت الحارث

آخر نساء النبي

« ذهبت والله ميمونة ... أما إنها والله كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم ! »

عائشة بنت أبي بكر

الإصابة : ١٩٢/٨

قلب يهفو

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح « خيبر » وعودة المهاجرين الى الحبشة ، مثل التفكير فيما نص عليه « عهد الحديبية » الذى عقد آخر سنة ست ، من أن « يعود محمد وأصحابه الى مكة فى العام الذى يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا شيء غيرها » [1]

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة الى « أم القرى » ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا الى أرض الوطن ، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذى جعل مثابة للناس وأمنا ، يأتون اليه من كل فج عميق

فلما سعوا اليه فى العام السادس للهجرة حاجين مسالمين وصاروا من « مكة » قاب قوسين أو أدنى ، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام ، وان قبلوا أخيرا أن يتركوا المسلمين يعودون اليه فى قابل ..

***

ومرت الأيام بطيئة والليالى طوالا ، حتى استدار العام ونادى الرسول فى الناس كى يتجهزوا للخروج الى مكة

وركب ناقته « القصواء » وتبعه ألفا راكب يتلهفون شوقا الى أقدم بيت عبد الله فيه ، وحنينا الى أول أرض كانت لهم مهدا وموطنا ومراحا

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة ، للقرية المباركة : مولد الرسول ومهبط الوحى

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم باليوم الموعود ، وأمامهم « عبد الله ابن رواحة » آخذا بخطام « القصواء » ينشد حاديا : [2]

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣\٧٩

(٢) ابن اسحاق فى السيرة : ٤/١٣

خلّوا بنى الـكفار عن سـبيله
خلوا ، فكـلّ الخير فى رسوله
يا رب انى مؤمن بقيـلـه
أعرف حـق الله فى قبـوله

حتى دخلوا مكة ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد

وتلوا آية الوعد الحق :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » (١)

ثم هتفوا فى صوت واحد ملبين :

« لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك »

فتجاوبت أرجاء « مكة » بالهتاف المؤثر ، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام ، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال ...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

« لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده »

فما بقى مكى الا وقد أيقن أن يوم النصر الأكبر للمؤمنين جد قريب ..

***

وفعل المشهد المهيب فى مكة فعل السحر ...

فاذا سيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبها الى « محمد » صلى الله عليه وسلم

تلك كانت « برة بنت الحارث بن حزن الهلالية » احدى أخوات أربع قال فيهن الرسول : « الأخوات المؤمنات »

---

(١) آية ٢٧ سورة الفتح

واحدة منهن شقيقة لها ، هى « أم الفضل ، لبابة الكبرى بنت الحارث» زوج العباس بن عبد المطلب ، وأول امرأة آمنت بالرسول بعـد خديجة عليها السلام ، والسيدة التى يذكر لها الاسلام (١) أنها ضربت أبا لهب عدو الله ورسوله ، حين دخل بيت أخيه العباس فاحتمل مولاه « أبا رافع» فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه لأنه أسلم . فقامت أم الفضل الى عمود هناك ، فشجت رأس أبى لهب شجة منكرة وهى تقول :

« استضعفته ان غاب عنه سيده ! ؟ » فقام موليا ذليلا ، فما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله بداء قتله

والأخريان أختان لبرة من أمها : « أسماء بنت عميس الخثعمية » زوج جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ، وأم ابنه عبد الله ، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الامام على بن أبى طالب فولدت له يحيى ، رضى الله عنهم »

و « سلمى بنت عميس » زوج حمزة بن أبى طالب ، شهيد أحد

وأمهن جميعا ، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ، التى كان يقـال فيها : « أكرم عجوز فى الأرض أصـهارا هنـد بنت عوف : أصهارها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وحمزة والعباس ابنا عبـد المطلب رضى الله عنهما ، وجعفر وعلى ابنـا أبى طالب رضى الله عنهما (٢)

وكان لهند غير هؤلاء ، أصهار آخرون من ذوى المكانة : الوليد بن المغيرة المخزومى ، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث ، أم خالد ، وأبىّ بن خلف الجمحى ، زوج ابنتهـا عصماء بنت الحـارث ، أم أبان ، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالى ، زوج عزة بنت الحارث (٣)

***

كانت « برة » اذ ذاك أرملة فى السادسـة والعشرين من عمرها ، قد

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢\٣٠١

(٢) السمط الثمين : ١١٣ ــ والاستيعاب : ١٩١٥/٤

(٣) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة : ١٩٦/٤ ، وانظر الاستيعاب ١٩١٥/٤ ، السمط الثمين ١١٥

مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى ، القرشى العامرى (١)

وأفضت « برة » الى شقيقتها « أم الفضل » بما يهفو اليه قلبها ، فتحدثت به الأخت الى زوجها العباس ، وجعلت له يدها

وما كان « العباس » ليتردد فى حمل رسالة كهذه الى نبى الاسلام ، بل مضى من فوره الى ابن أخيه ، فخاطبه فى أمر « برة » وعرض عليه أن يتزوجها ، واستجاب الرسول ، وأصدقها أربعمائة درهم ، وبعث ابن عمه جعفر – زوج أختها أسماء – يخطبها ...

وفى رواية أن « برة بنت الحارث » هى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى وتبارك فيها : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى » (٢)

***

وكانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية (٣) ، قد قاربت نهايتها ، فود الرسول لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج ، فيكسب بهذا الامهال مزيدا من الوقت ، ليمكن للاسلام من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا ...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان اليه أن يخرج ، اذ انقضى الأجل المنصوص عليه فى العهد ، قال مسالما :

« ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ ! » (٤)

لكن رسولى قريش ، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة ، اذا امتد مقامه بها أياما أخريات

وأجابا فى جفاء :

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة : ١٩٦/٤ . وفى اسم الزوج خلاف – راجع السمط الثمين ص ١١٥

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٩٦/٤ والاية من سورة الاحزاب (رقم ٥٠)

(٣) نص العهد على أن يرجع الرسول وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ (السنة السادسة هـ) ثم يدخلها بأصحابه فى عام قابل ، فيقيموا بها ثلاثة أيام – راجع نص العهد فى تاريخ الطبرى ٧٩/٣

(٤) سيرة ابن هشام : ١٤/٤ – وتاريخ الطبرى : ١٠٠/٣

« لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا »

فنزل الرسول على كلمتها وفاء بعهده ، وأذن فى المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه « أبا رافع » بمكة ، ليلحق به فى صحبة « برة » (١)



(١) السيرة : ٤/١٤ — وتاريخ الطبرى : ٣/١٠١ — والسمط الثمين ١١٤

وفى « سرف » ــ قرب التنعيم ــ جاءت « برة » يصحبها مولى الرسول

فبنى بها محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ هناك (١) ، ثم انصرف بها راجعا الى « المدينة »

وسماها « ميمونة » أن كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء ، التى دخل فيها أم القرى ، لأول مرة منذ سبع سنين ومعه أتباعه آمنين لايخافون

ودخلت « ميمونة » بيت النبى مسالمة ، قد اكتفت من دنياها بما منّ الله عليها به من نعمة الاسلام ، وشرف الزواج بالرسول الكريم

وما من ريب فى أن الغيرة من « عائشة » ثم من « مارية » لذعتها : أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب الرسول ، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم

وما من ريب كذلك فى أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة ، حين جمحت الغيرة بنساء الرسول ، وهى منهن ، فكانت المغاضبة والهجر

لكن مؤرخى الاسلام وكتّاب السيرة ، لا يذكرون لها ــ فيما عدا ذلك ــ حادثة خصومة انفردت بها ، أو شجار شبّته فى بيت الرسول

وانما يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم كان فى بيتها حين اشتد به الألم فى مرض الموت ، فرضيت أن ينتقل الرسول حيث أحب ، الى بيت عائشة

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام الى جوار ربه الأعلى ، عاشت « ميمونة » تذكر اليوم الميمون الذى جمعها بالرسول ، وتحن الى البقعة المباركة فى « سرف » حيث بنى بها ..

وقد أوصت أن تدفن فى موضع قبتها هناك ، فلما ماتت ــ بعد منتصف القرن الأول للهجرة ــ أرقدوها حيث أحبت .. (٢)

---

(١) السيرة : ١٤/٤ ــ وتاريخ الطبرى : ١٠١/٣ ــ السمط الثمين ١١٤ ــ والاستيعاب : ١٩١٨/٤

(٢) السمط الثمين : ص ١١٥ ــ والاستيعاب : ١٩١٨/٤

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة ..

حدث « يزيد بن الأصم » :

«تلقيت عائشة من مكة ، أنا وابن لطلحة من أختها ، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان « المدينة » فأصبنا منه .. فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت عليّ فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت : أما علمتَ أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت من بيوت نبيه ؟.. ذهبتْ والله ميمونة ، ورُمِى بحبلك على غاربك . أما انها كانت والله من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم »

سلام على ميمونة ...

وسلام على نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، أمهات المؤمنين



فهرس

صفحة

طبع بمطـابع دار الهلال


Bibliotheca Alexandrina
0609743